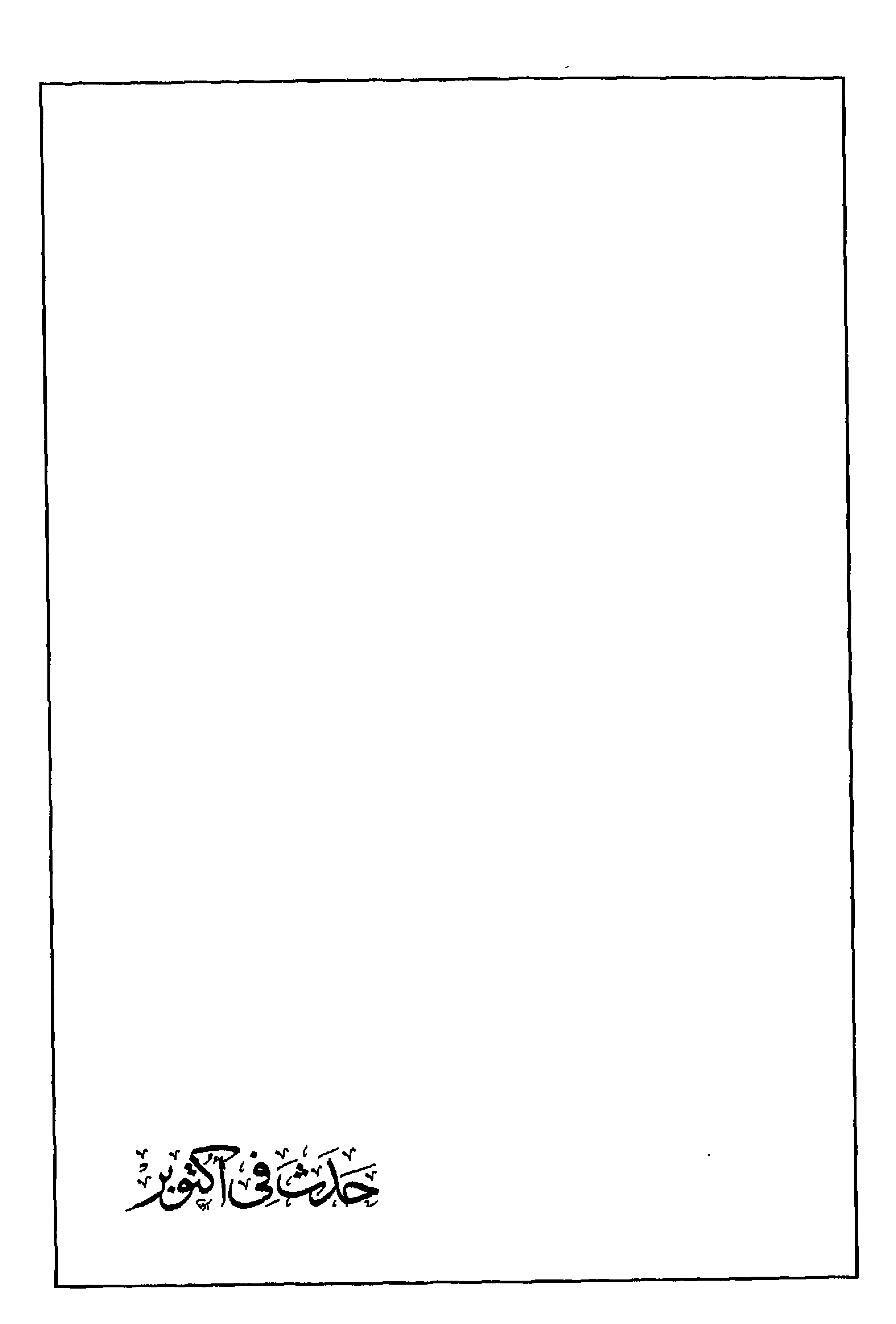
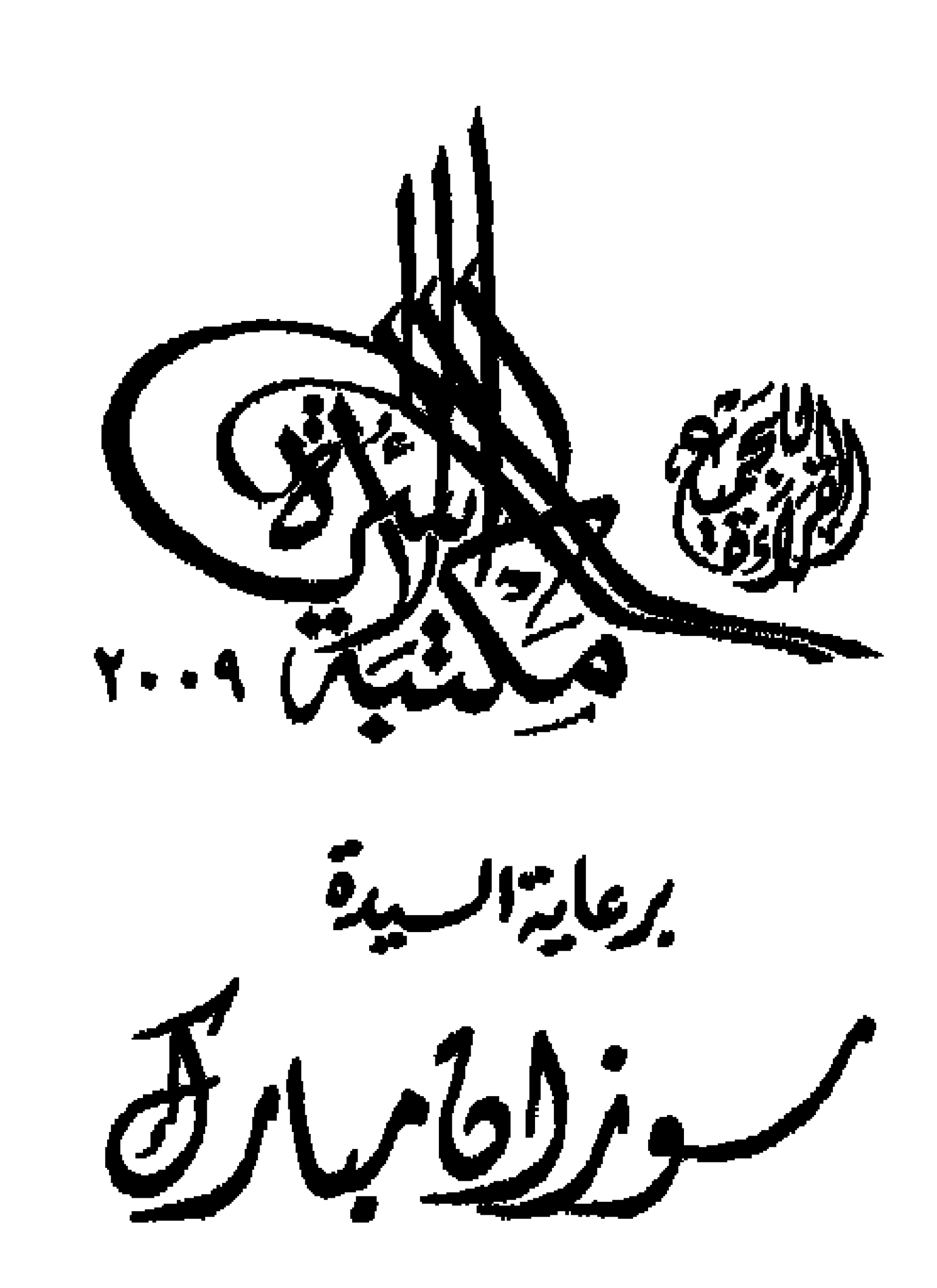
مكتبة الأسرة ٢٠٠٩
سلسلة العلوم الاجتماعية

حدث في أكتوبر

صلاح قبضايا




حدث في أكتوبر



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومى للشباب

وزارة التنمية الاقتصادية

حدث في أكتوبر

صلاح قبضايا



قبضايا ، صلاح .
حدث فى أكتوبر / صلاح قبضايا . ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
١٩٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك: ٠ - ٣٨٧ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - أنور السادات
(١٩٧١-١٩٨١م).
أ - العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٤٢٨ / ٢٠١٠
I.S.B.N 978-977-421-387 -0
ديوى ٩٦٢,٠٧١

توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية **للقراءة للجميع** فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «**مصر السلام**». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة. فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقّع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلِّم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياه كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة **سوزان مبارك** عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت **القراءة للجميع** من أهم المشروعات الثقافية العملاقة فى العالم العربى، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به فى بلاد آخرى.

ومازالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسى من روافد **القراءة للجميع**، تقوم بدورها فى إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة فى زمن تزحف

فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذى يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذى يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعى، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع فى إصدار كتب الفنون المختلفة كالمسرح والموسيقى إيمانًا منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمئويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

٢٠٠٩

الكتاب الأول

مشاهد الضربة الجوية

اجتماع الثلاثة
فى طائرة الرئاسة

كان ذلك ظهر أحد أيام يونيو ١٩٧٣ عندما دق جرس التليفون فى مكتب اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية والمتصل بشبكة الاتصالات الداخلية لكبار القادة والمؤمن عبر أجهزة الاتصالات المغلقة «بى بى إكس» وجاء صوت المتصل يحمل إخطارا مختصرا يقول: إن الرئيس أنور السادات يطلب منه مرافقته غدا فى رحلته إلى كل من ليبيا وسوريا.

وكان حسنى مبارك على موعده صباح اليوم التالى فى صالة رئاسة الجمهورية الملحقة بمطار القاهرة الدولى، وهناك التقى حسنى مبارك مع رفيق آخر فى الرحلة هو اللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى، وصعد الاثنان إلى طائرة الرئاسة ليكون أنور السادات هو آخر من وصل إلى القاعة فى المطار وآخر من صعد إلى الطائرة.

وفور إقلاع الطائرة من الممر بدأ اجتماع الثلاثة فى طائرة الرئاسة، وبدأ أنور السادات حديثه بسؤال وجهه إلى اللواء محمد على فهمى عن مدى استعداد قوات الدفاع الجوى لتحمل مسئوليات القيام بالمهام الموكولة إليها فى المعركة الهجومية التى

ستشنها قواتنا على العدو بهدف عبور المانع المائى لقناة السويس والاستيلاء على مواقع خط بارليف شرق القناة، وكان رد قائد الدفاع الجوى مختصرا وحاسما وقال فى عبارة واثقة: إن قواته مستعدة لتنفيذ المهام المكلفة بها.

وفجأة طرح الرئيس السادات سؤالا آخر على محمد على فهمى يتعلق بزوجته، قال له: إنه علم بمرض زوجته ويريد أن يعرف مدى نجاح العلاج وتقدمه.

وسكت الرجل الذى فوجئ بالسؤال فى حين تولى حسنى مبارك الإجابة قائلا: إنها تعانى من مرض شديد وهى تحتاج إلى عناية أكثر.

واستدعى أنور السادات سكرتيره المتواجد على متن الطائرة وأصدر تعليماته بإعداد قرار سفر زوجة محمد على فهمى للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة، وأن يرافقها زوجها عند سفرها وحتى بداية العلاج ولو لثلاثة أيام.

ورد الزوج بما يفيد عدم ضرورة سفره فى هذه الفترة الدقيقة بعد أن بدأ الاستعداد الجاد للعبور، ورد عليه الرئيس السادات بأن ثلاثة أيام إجازة لن تكون مشكلة.

وابتسم السادات وهو يوجه حديثه هذه المرة إلى قائد القوات الجوية قائلا: أنا عارف يا مبارك أنك دائما جاهز.. وإحنا أمامنا شهران أو ثلاثة على الأكثر وندخل الحرب لأن تحريك الموقف السياسى يتطلب عملا عسكريا ناجحا.

وكرر حسنى مبارك رده الذى سبق أن قاله للرئيس السادات مؤكدا أن القوات الجوية جاهزة للقيام بدورها فى المعركة.

ولم يكن ما دار بين الثلاثة فى طائرة الرئاسة هو الأول من نوعه، فقد سبق ذلك أكثر من لقاء بين الرئيس وقائد الطيران، كما كانت المهام التى كلفت بها القوات الجوية المصرية قبل ذلك لا تقل صعوبة منذ الأيام القليلة التى تلت هزيمة ٦٧ والخسائر الكبيرة فى الطائرات والمعدات، والتى لم تنل من الطيارين.

لقد تولى حسنى مبارك منصب مدير الكلية الجوية بعد خمسة شهور فقط من أحداث الخامس من يونيو والتى أطلقوا عليها اسم النكسة، وبالتحديد فى شهر نوفمبر ١٩٦٧ وكانت المهمة الموكولة إلى مدير الكلية الجوية الجديد عقيد طيار محمد حسنى مبارك هى تخريج أكبر عدد من الطيارين الأكفاء فى أقل وقت ممكن طبقا لخطط تعليم وتدريب مكثفة تعتمد على ما يتصف به قائد الكلية من انضباط وما اشتهر عنه من صبر وجلد وتفرغ للعمل.

وجاءت النتائج مبهرة، لقد استطاعت الكلية الجوية تخريج ست دفعات من الطيارين فى حوالى (١٩) شهرا أى عام ونصف عام.

وهذا ما دفع الرئيس جمال عبدالناصر إلى القيام بزيارة الكلية الجوية والنظر بإعجاب إلى قائدها ويقول له: إنت بتعمل إيه هنا يا مبارك؟

وكان هذا السؤال يحمل معانى كثيرة كشفت عنها القرارات التالية وكان أولها ترقية العقيد طيار محمد حسنى مبارك إلى رتبة عميد طيار وصدور قرار بتعيينه رئيسا لأركان القوات الجوية المصرية، وكان هذا القرار يحمل تاريخ الأحد ٢٢ يونيو ١٩٦٩

ليكون حسنى مبارك بذلك المسئول عن المشاركة فى كل مراحل إعادة بناء القوات الجوية ورفع كفاءة الطيارين القتالية باستخدام طائرات القتال الجوى والقاذفات الثقيلة والمقاتلات القاذفة وسائر أجهزة التوجيه والملاحة وإطلاق الصواريخ وقصف القنابل وسائر المهام القتالية الأخرى فى عصر تتقدم فيه علوم الطيران كل يوم.

ويقول الذين عاصروا هذه الفترة من تاريخنا العسكرى، إن نجاح رئيس أركان القوات الجوية فى هذه المهام التى كلف بها يرجع إلى ما هو معروف عنه منذ تخرجه فى الكلية الجوية من عدم استسلامه للراحة والاسترخاء وهو ما يتضمنه ملفه العسكرى المحفوظ باسم ملازم طيار محمد حسنى مبارك.

وكانت طبيعة الأمور التى تساير طبيعة الرجل المعروف عنه حب العمل وقدرته على تحمل المهام الصعبة وراء القرار الذى صدر فى إبريل ١٩٧٢ بتعيينه قائدا للقوات الجوية ليكون المسئول الأول عن إعداد الطيران المصرى لمهامه القتالية فى معركة العبور وقيادة القوات الجوية خلال أول عملية عسكرية هجومية تقوم بها مصر منذ بداية الصراع المسلح فى الشرق الأوسط.

وكان الأمل معقودا عليه وعلى رجاله الذين عاصرهم طلبة بالكلية الجوية عندما كان مديرا لها وتابعهم فى حياتهم العملية وهو فى منصب رئيس أركان القوات الجوية ثم قائدا لها.

وهذا ما عبر عنه الرئيس أنور السادات يوم استدعاه إلى منزله الريفى بقرية «ميت أبو الكوم»، ويروى أنور السادات ما دار معه فى هذا اللقاء الثنائى حيث قال له السادات:

«يا مبارك الطيران بتاعنا انضرب مرتين.. مرة سنة ٥٦ ومرة سنة ٦٧ ولن تكون هناك مرة ثالثة، وأنا طلبت اللقاء معك هنا فى «ميت أبو الكوم» لأسألك سؤالا محددا وأريد أن أسمع منك إجابة واضحة ومحددة، هل القوات الجوية مستعدة للمعركة أم لا؟؟».

ويقول السادات إن رد مبارك جاء سريعا وواضحا وحاسما.. وقال بالحرف الواحد:

«قواتنا قادرة على القيام بواجبها فى إطار المهام التى كلفت بها، وعلى هذا الأساس أقول بمنتهى الثقة، إننا على أتم الاستعداد لخوض المعركة».

وحتى يمكن أن نتفهم مغزى السؤال والإجابة عليه، لا بد أن ننظر فى ملفات القوات الجوية منذ يونيو ١٩٦٧ وحتى ذلك اليوم الذى التقى فيه السادات مع قائد القوات الجوية فى ميت أبو الكوم.

والحقيقة المؤكدة هى أننا رغم خسارة طائراتنا فى ذلك الصباح المشئوم يوم الإثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ فإننا نستطيع أن نقول: إن الخسائر لم تدعنا إلى اليأس بالنسبة لقواتنا الجوية لأننا لم نفقد الطيارين المصريين الذين هم عماد قواتنا الجوية والعنصر الرئيسى الذى يصعب تعويضه، إن شراء الطائرات أو الحصول على بدائل لها قد لا يستغرق شهورا محدودة، لكن تعويض الطيار وإعداده وإكسابه الخبرات القتالية يستغرق عشر سنوات، قد تقل قليلا، أو تزيد.

وإعادة بناء قواتنا الجوية كان يتركز على زيادة خبرات الطيارين والارتفاع بمستواهم القتالى، دون أن ننبه العدو إلى حقيقة الوهم الكبير الذى عاش فيه سنوات والذى جعله يتخيل أن قواته الجوية تسبقنا بحوالى عشر سنوات وأن عدد الطيارين المصريين لا يتيح لهم العمل فى سماء المعركة، وأنهم أقل خبرة بالإضافة إلى قلة العدد.

وقد روج لهذا الفكر عدد من الكتاب والسياسيين ولم نستطع أن نتصدى لهم فى حينه اعتمادًا على استمرار العدو فى غروره وصلفه واستثمار ذلك فى خطة الخداع الاستراتيجى واستكمالها بخطط الخداع التكتيكى.

وربما كان موقف العدو على الضفة الشرقية للقناة يدعو إلى اليأس عند الكثيرين.

وكانت وجهة نظر الرافضين لشن حرب هجومية هى أن عبور الموانع المائية ظل دائما أشق العمليات العسكرية وأعقدها وأكثرها فداحة فى الخسائر، وهناك جيوش حاولت عبور الموانع المائية قديما وحديثا ففشلت وأصابتها الكوارث. وكان الآخرون يختلفون مع هذه النظرة ويرون أن الموانع المائية قلت قيمتها بفضل تطور أسلحة القتال وظهور المركبات والدبابات البرمائية، غير أن قناة السويس كانت تشكل مانعا فريدا يختلف عن باقى الأنهار والمسالك المائية الأخرى للأسباب التى ذكرها مدير عمليات القوات المسلحة اللواء محمد الجمسى ـ الذى أصبح بعد ذلك وزيرا للدفاع برتبة مشير ـ والذى ننقله عنه

وسبق لنا نشره والذى أرجع فيه الجمسى حجم التحدى إلى الأسباب التالية:

- يتراوح عرض القناة ما بين (١٨٠ و٢٢٠) مترا وطولها يصل إلى (١٧٥) كيلو مترا ويتراوح عمقها ما بين (١٦ و١٨) مترًا وينخفض سطح المياه عن حافة الشاطئ بحوالى مترين، وبذلك لا يمكن عبور القناة بالمعدات التقليدية لا عومًا ولا غوصًا ولا سيرا على القاع.

- يحد القناة شاطئ شديد الانحدار مغطى بستائر أسمنتية وحديدية تمنع نزول وصعود المركبات المائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة، وهى صفة تتفرد بها قناة السويس عن مختلف قنوات وأنهار العالم باستثناء قناة واحدة هى قناة بنما.

- تتعرض القناة لظاهرة المد والجزر فيختلف منسوب المياه تبعا لارتفاعها وانخفاضها عدة مرات فى اليوم الواحد؛ ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر حوالى (٦٠) سنتيمترًا فى شمال القناة بينما يزيد هذا الفارق كلما اتجهنا جنوبا حتى يصل إلى المترين قرب مدينة السويس، ولمثل هذه الظاهرة أثرها الكبير على تخطيط العبور والأعمال الفنية الخاصة بإقامة المعديات وإنشاء الكبارى.

وهناك عامل مهم له تأثيره على العبور وهو سرعة التيار واتجاهه لأن القناة تتميز بشدة التيار وسرعته التى تبدأ من (١٨) مترا فى الدقيقة بالقطاع الشمالى وتصل إلى (٩٠) مترا فى الدقيقة فى القطاع الجنوبى، وفضلا عن ذلك فإن اتجاه

التيار يتغير دوريا كل ست ساعات من الشمال إلى الجنوب وبالعكس.

ويوجد على الضفة الشرقية للقناة ساتر ترابى من نواتج حفرها وتطهيرها يتراوح ارتفاعه من ستة إلى عشرة أمتار، وقد أوحى هذا الساتر الترابى للعدو أن يستغله فى إقامة خط دفاعى محصن على امتداد القناة، فقام بتعليته حتى وصل ارتفاع فى بعض القطاعات إلى (٢٥) مترا.

وفى جوف هذا الساتر الترابى الكبير أقام العدو عدة نقاط حصينة بذل فى بنائها جهدًا ضخمًا وأموالاً وفيرة واستخلص الخبرات المكتسبة من مسارح الحرب المعاصرة فى علوم التحصينات والموانع وفنونها وطبقها على خط بارليف.

وتقول مذكرات القادة: إن العدو أراد أن يجعل من المانع المائى الفريد الذى تشكله قناة السويس سدًا منيعًا يحول بين جيش مصر وأرض مصر فى سيناء، فلم يكتف برفع الساتر الترابى رأسيا بل قام بإزاحته غربيا حتى لامس حافة القناة تماما بزاوية ميل تزيد على ٤٥ درجة ليضع أمام المقاتل المصرى مزيدًا من العقبات وينمى فى وجدانه شعورًا بالعجز واليأس.

وأقام داخل هذا الساتر وفوق قمته وإلى الخلف منه عدة خطوط دفاعية محصنة تشكل فى مجموعها منطقة دفاعية من أقوى المناطق الدفاعية التى عرفها التاريخ.

وقد أطلق اسم «خط بارليف» على الخط الأول منها والذى

تكلف إنشاؤه (٢٣٨) مليون دولار وهو - بتقدير تلك الأيام - يوازى ما يقرب من نصف تكاليف السد العالى.

ويتكون خط بارليف من (٢٢) موقعا حصينا تضم (٣١) نقطة قوية تبلغ مساحة كل نقطة منها حوالى (٤٠٠٠) متر مربع أو أكثر وهى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تغوص فى باطن الأرض وتعلو حتى تصل إلى قمة الساتر الترابى.

ويتكون الطابق الواحد من عدة دشم من الأسمنت المسلح المقوى بالقضبان الحديدية وألواح الصلب ويفصل كل طابق عن الآخر طبقة من القضبان الحديدية والخرسانة المسلحة والأتربة والأحجار ويبلغ سمك هذه الطبقة مترين.

وجهزت كل دشمة بعدة فتحات تمكنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات، فضلا عن دشم أخرى مجهزة لأسلحة المدفعية والدبابات، وتتصل جميع هذه التجهيزات ببعضها البعض عن طريق خنادق مواصلات عميقة مبطنة بألواح الصلب وشكائر الرمل، ووفرت هذه التحصينات والأعمال الهندسية المختلفة وقاية للنقاط القوية ضد القنابل الثقيلة حتى ألف رطل أو أكثر.

ولزيادة مناعة النقاط الحصينة أحاطها العدو بنطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد والتى بلغ عمقها حوالى (٢٠٠) متر بالإضافة إلى الشراك الخداعية التى تغطى ميول الساتر الترابى وقمته، كما جهز العدو بعض النقاط بخزانات الوقود ومواد النفط وسائل النابالم لتخرج منها مواسير إلى القناة يتسرب خلالها الوقود طبقا لنظرية الأوانى

المستطرقة فتغطى سطح القناة، وعندما تشتعل هذه السوائل تتحول مياه القناة إلى مسطح هائل من اللهب ترتفع ألسنته الحارقة لحوالى المتر وتزيد درجة حرارته على (٥٠٠) درجة مئوية.

وحرص العدو فى اختيار مواقع هذه النقاط الحصينة على أن تغطى الاتجاهات الصالحة لعبور القناة وتعوق تقدم قوات العبور إلى عمق سيناء. وتتبادل كل النقاط الحصينة فيما بينها المعاونة بالنيران لتخلق بالإضافة إلى السد الترابى وحاجز اللهب المشتعل سدًا آخر من نيران الأسلحة المتوسطة والثقيلة خاصة بعد أن جهز العدو عدة مواقع لدباباته فوق الساتر الترابى بفاصل (١٠٠) متر على طول قناة السويس.

ويستطرد اللواء الجمسى فى وصفه لخط بارليف قائلا: «بذلك نرى أن قناة السويس وخط بارليف ليسا مجرد مانع حصين فحسب بل هما مانع فريد ليس له مثيل فى العالم وليس هناك خبرة سابقة فى التاريخ العسكرى لعبور مثله، وهذا ما دفع الجنرال ديفيد إليعازر رئيس أركان الجيش الإسرائيلى إلى أن يقول: إن خط بارليف سيكون مقبرة للجيش المصرى» .

ورغم أن هذا قد ترك بعض الآثار السلبية على القادة لكنه لم يقتل روح التحدى داخلهم، وقد استجاب الرجال للتفاعل مع أدوارهم فى الخطة الهجومية، وكان أول المتحمسين هم رجال القوات الجوية الذين يتحملون الجانب الأكبر من المسئولية خلال العمليات التمهيدية الأولى التى تبدأ بالضربة الجوية، وكان الجميع مكلفين بوضع حلول عملية لمواجهة هذه المعضلات التى

تجعل من العبور أمرًا مستحيلاً. وباختصار كان المطلوب هو أن نجعل عبور قواتنا المسلحة لهذا المانع المائى والاستيلاء على النقاط الحصينة لخط بارليف أمرًا ممكنًا ومستطاعًا بدلاً من أن يظل مستحيلاً، كما يتصور العدو، وهذا ما اعترف به - بعد ذلك - المعلق البريطانى ديفيد هاريس عندما قال: إن الغرور الإسرائيلى حقق للمصريين التفوق.

وقد تم تكليف مجموعات الخداع الاستراتيجى بوضع خطط التعمية والخداع بحيث يرسخ لدى العدو استحالة تفكير مصر فى الحل العسكرى، كما أن أجهزة الدولة الأخرى قامت بأعمال المساندة المطلوبة بما فى ذلك شركات المقاولات المدنية.

ويلخص الجمسى المشاكل الأساسية التى تواجه العبور فى خمس نقاط رئيسية تلى المهمة الأولى وهى قيام طائرات القوات الجوية بضرب أهداف مختارة بدقة لتمهد لعبور باقى القوات. وهذه النقاط الخمس هى:

أولاً: طرق دفع القوات إلى الممر المائى ووسائل عبوره رغم وجود هذه المعوقات على ضفتى القناة بما فى ذلك الساتر الترابى الهائل شرق القناة.

ثانيًا: وسائل إخماد النيران فوق سطح مياه القناة أو منع تسربها دون أن يشعر العدو بمحاولات تخريبها.

ثالثًا: مفاجأة العدو بضربة جوية على نطاق واسع تمهد لعبور المجموعات الأولى من القوات وتأمينها ضد نيران العدو بمدفعيته ودباباته ورشاشاته.

رابعًا: كيفية ارتقاء الساتر الترابى الذى يبلغ ارتفاعه عشرين مترًا.

خامسًا: توفير أسباب نجاح قوات العبور المترجلة فى مواجهة دبابات العدو وعرباته المدرعة.

وأخيرًا.. وبعد أن نصل إلى حلول ممكنة وحاسمة لهذه المعضلات يصبح أمام سائر الوحدات المقاتلة التدريب عمليًا على الدور الذى تكلف به كل وحدة بصورة تبدو طبيعية ودون أن تلفت نظر العدو أو تقلل من فرصة خداعه وتحقيق المفاجأة الكاملة له.

وقد استغرق تدريب الطيارين على القيام بالمهام الموكولة إليهم جهدا بالغا مهد لنجاحهم بخسائر لا تذكر ولا يمكن مقارنتها بما هو متوقع فى مثل تلك العمليات، وهذا ما سنتعرض له بعد ذلك.

لقد عكف الرجال على دراسة المشاكل التى تواجه فكرة العبور.. أو فكرة الحرب الهجومية من أساسها.. وقد رسخ ذلك فى وجدانهم أنه لا بد من أن نجد حلولا لكل مشكلة.. ولا بد أن ننجح.. ولا بديل عن الحرب.

وهذا ما تردد بعد ذلك فى اجتماع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى مبنى القيادة العامة قبل أن ينتقلوا إلى بيت الرئيس أنور السادات فى الجيزة؛ حيث تولى رئاسة المجلس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة.

الإعـداد
للضربة الجوية

بدأ الإعداد للضربة الجوية منذ إبريل ١٩٧٢ عقب تعيين اللواء طيار حسنى مبارك قائدا للقوات الجوية؛ حيث كانت المهمة الموكولة إليه واضحة كل الوضوح وهى إعداد الطيارين لمهامهم القتالية فى معركة العبور وقيادة القوات الجوية خلال أول عملية عسكرية هجومية تقوم بها مصر.

واستغرق التدريب على ضرب الأهداف المعادية عدة مراحل، بدأت بتحديد الأهداف التى سيتم ضربها، والقيام باستطلاع هذه الأهداف ثم عمل طلعات تدريبية بالطائرات التى ستقوم بالعمليات الهجومية باستخدام ذخيرة حية أحيانا وبدون ذخيرة فى كثير من الأحيان.

وكانت البداية الطبيعية هى تحديد الأهداف التى سيجرى ضربها ثم دخول طائرات استطلاع إلى ما وراء خطوط العدو وتصوير الأهداف التى ستتم مهاجمتها، ثم تحديد طريق الدخول إلى كل منها والذخيرة المستخدمة مع كل هدف والارتفاعات المناسبة فى كل مرحلة وطريق عودة كل طائرة بعد الانتهاء من أداء مهمتها.

وقد كان نجاح عمليات الاستطلاع والتصوير الجوى يبشر بنتائج إيجابية تمهد للمراحل التالية من الإعداد للضربة الجوية، وكانت خطة الاستطلاع تعتمد على وسائل خداع وتمويه متعددة ومختلفة ولا تتكرر كثيرا، ومنها قيام طائرات مقاتلة بطلعات خداعية من البحر أو فى مناطق بعيدة عن منطقة الاستطلاع لجذب انتباه العدو الذى كان يرصد هذه الطلعات ويستعد لمواجهتها وفى كثير من الأحيان تقلع طائراته لمواجهة الهجوم المتوقع، وفى تلك الأثناء تكون إحدى طائرات الاستطلاع قد عبرت خط المواجهة من فوق قناة السويس على ارتفاع منخفض فى اتجاه الهدف الذى تريد تصويره، ويصعب على أجهزة العدو اكتشاف طائرة الاستطلاع خلال انطلاقها بسرعة عالية وعلى ارتفاع منخفض ولا يتمكن من التعامل معها حتى تتمكن من أداء مهمتها والعودة إلى الغرب بأقصى سرعتها مستخدمة جهاز الإشعال المعروف باسم «أفتر بيرن» أى ما بعد الاحتراق، وفى دقائق قليلة تكون الطائرة قد دخلت فى مظلة الدفاع الجوى التى لا يستطيع طيران العدو الاقتراب منها تنفيذا للتعليمات المشددة التى تمنع طيران العدو من الاقتراب من قناة السويس لأقل من ١٥ كيلومترا.

وليس لدينا معلومات محددة حول ما حصلت عليه قواتنا الجوية بواسطة الاستطلاع الأرضى، سواء عن طريق العملاء أو دوريات القوات الخاصة التى كانت تتسلل إلى ما وراء خطوط العدو أو من بعض الأفراد الذين ينتمون إلى قبائل البدو فى

سيناء كما أن أحدا لم يبح بمصادر الصور الأخرى التى حصلت عليها قواتنا الجوية للمواقع المستهدف ضربها خلال اللحظات الأولى للمعركة سواء من خلال التصوير الأرضى أو الرسم الكروكى، أو من خلال صور أقمار صناعية من دول صديقة، ويبدو أن هذه المصادر ستظل خافية لسنوات أخرى، لكن المؤكد أن جميع المعلومات المطلوبة عن كل موقع وكل هدف ستقوم طائراتنا بضربه فى اللحظات الأولى للعمليات الهجومية توفرت بالقدر الكافى.

والأهم من الصور والمعلومات، هو مدى الاستفادة منها واستثمارها، وهذا ما أبدعت فيه قواتنا الجوية خلال مراحل ما بعد الاستطلاع.

وحصلت القوات الجوية على كل المعلومات والصور الخاصة بالأهداف التى سيتم ضربها وإفساد قدرتها على العمل وكانت بالتحديد وحسب أولوية الأهمية هى:

- محطة التشويش الرئيسية فى أم خشيب وهى مزودة بأجهزة إلكترونية تقوم بالتشويش على أجهزة الطائرات وتصطنع أهدافًا وهمية تظهر للطائرات المهاجمة وهى فى واقعها سراب لا وجود له فى الواقع، كما أنها تقوم بعرقلة الاتصال بين الطائرات بعضها ببعض بواسطة جهاز تشويش متقدم طراز «A2Câ" إنتاج أمريكى، وكان المطلوب هو تدمير أجهزة التشغيل ومعدات الإرسال تحديدا ومنها الهوائيات، وليس تشتيت الجهد وإضاعة الوقت فى تدمير المبنى كله.

وكان العدو يملك أجهزة تشويش أخرى محمولة جوا فوق سطح طائرة خاصة قادرة على التحليق على ارتفاعات كبيرة وإطلاق إشارات خادعة تمنع رؤية الأهداف الحقيقية وتستحدث أهدافا وهمية.

وعندما حانت ساعة الصفر وتحققت المفاجأة لم يتنبه العدو لما أحدثته طائراتنا ولم يجد لديه الوقت لاستخدام هذه الطائرة.

● ثلاثة مراكز للقيادة والسيطرة وأهمها مركز القيادة الرئيسى فى أم مرجم.

● قواعد الصواريخ المضادة للطائرات طراز «هوك» أرض جو أمريكية الصنع، وعددها عشرة مواقع صواريخ وتتولى المقاتلات المصرية طراز «ميج» ضرب هذه الأهداف بواسطة الصواريخ المحمولة جوا.

● ثلاثة مطارت وهى: مطار المليز، ومطار العريش، ومطار رأس نصرانى، وهى مطارات يستخدمها العدو عند إعادة توزيع قواته الجوية التى تتمركز بصورة رئيسية فى قواعد محددة وسط وشمال إسرائيل ليقوم بتوزيع أسرابها على مطارات أخرى طبقا لطبيعة العمليات الموكولة إليها، وهذه العقيدة العسكرية تنبع من طبيعة طوبوغرافية إسرائيل باعتبارها محاطة بالأعداء من جبهات متعددة. وكان التركيز فى ضرب هذه المطارات هو إصابتها بصورة تمنع هبوط طائرات فيها وذلك باستخدام قنابل الممرات التى يتم تزويد المقاتلات القاذفة المصرية «سخوى ٧» بها.

وعندما اكتملت لدى قواتنا الجوية الصور والرسوم والمعلومات الخاصة بكل هذه الأهداف تم تحويلها إلى لوحات تفصيلية لكل هدف، وتعريف الطيارين بأماكنها وطرق الاتجاه إلى كل هدف منها والدخول إليها والارتفاعات المحددة لكل مرحلة والتى تبدأ بالطيران على ارتفاع منخفض جدا ثم الارتفاع المفاجئ عند مرحلة الضرب وزاوية إطلاق النيران عليها والمكان المحدد داخل كل هدف على حدة، حيث لم يكن المطلوب تدمير الهدف المعادى بالكامل بقدر إصابة الأجزاء والأماكن المؤثرة فيه وتحديد زاوية الإطلاق المناسبة، حتى تتم المهمة بنجاح فى وقت وجيز تعقبه العودة السريعة إلى مطار الهبوط عبر طريق آمن مرسوم لكل طائرة على حدة.

وأهم جانب فى هذه المرحلة من التدريب كان تنظيم خطط الإقلاع والطيران المنخفض بحيث تعبر الطائرات جبهة القناة على ارتفاعات منخفضة للغاية، وفى أوقات متلاحقة تؤدى إلى وصولها إلى أهدافها فى توقيت واحد، لتتم الضربات فى نفس الوقت رغم أن الطائرات المصرية كانت تنطلق من قواعد مختلفة ومتباعدة.

كان كل ذلك يشكل مرحلة من مراحل التدريب على أداء الضربة الجوية التى استغرقت عشرين دقيقة قد تزيد بنسبة ثوان معدودة، فى حين أن الإعداد لها والتدريب على مراحلها استغرق ما يقرب من سنة ونصف، أو تحديدا (١٦) شهرًا أو تزيد.

وكانت آخر مراحل التدريب على أداء الضربة الجوية تتم على نماذج مجسدة للأهداف التى سيتم ضربها، لقد قام المهندسون ورجال العمليات الجوية ببناء نماذج للأهداف المعادية التى يجرى الاستعداد لقصفها جوا عندما تحين ساعة الصفر، ولم يعد سرا أن هذه النماذج قد تم بناؤها فى منطقة تماثل أماكن وجودها الفعلى، وذلك حتى يقوم الطيارون بالتدريب على الدخول إليها بالارتفاعات المحددة قبل الاقتراب وعند الاقتراب ولحظة تدميرها، وكان ذلك يستدعى تحديد الطائرات التى ستقوم بالضربة الجوية واختيار الطيارين الذين سيتدربون على هذه المهمة.

. وخلال تلك المرحلة تم اختيار أنواع الطائرات التى ستشارك فى الضربة الجوية، وكانت تحديدا طائرات مقاتلة «ميج ١٥» و«ميج ١٧» مزودة بكامل تسليحها من الصواريخ، بالإضافة إلى المقاتلات القاذفة طراز «سخوى ٧» وبمجموع كلى قدره (٢٢٠) طائرة وهو العدد الفعلى الذى قام بعمليات الهجوم الجوى ظهر يوم السادس من أكتوبر.

وكان التدريب على ضرب نماذج الأهداف المعادية يجرى عادة بدون استخدام الذخيرة الحية ويعتمد بالدرجة الأولى على ممارسة التحليق على الارتفاعات المحددة، وزاوية الدخول إلى الهدف، ولحظة الارتفاع المفاجئ المناسب لإطلاق القنابل والصواريخ، وكانت الطائرات تقوم باستخدام كاميرات خاصة لتصوير الضرب ويجرى تحليل هذه الصور وإعادة التوجيه عند الحاجة إلى تصحيح توقيتات الارتفاع واتجاهات الضربات.

وآخر مراحل التدريب كانت تتطلب ضرب نماذج الأهداف المعادية بذخيرة حية ومراجعة آثار التدمير وتقييمه، وقد اقتضت خطط التدريب إعادة بناء نماذج الأهداف المعادية أكثر من مرة وإعادة ضربها بذخيرة حية من صواريخ أو قنابل طبقا لنوعية الهدف والسلاح المناسب لضربه.

وكانت مراحل التدريب تتطلب حسابات دقيقة للزمن وكان المطلوب هو تحقيق أهداف الضربة الجوية بأفضل نتائج وفى أقل وقت، وهذا ما تحقق فعلا ظهر يوم السادس من أكتوبر حيث لم تستغرق العمليات سوى عشرين دقيقة فى حين كان المقدر لها ما بين (٢٢ و٢٥) دقيقة. وهذا مما يحسب لأبطال الضربة الجوية حيث إن الدقيقة فى عالم الطيران الحربى تعنى الكثير، لأن سرعة طائراتنا فى ذلك الوقت كانت (٩٠٠) كيلومتر فى الساعة، أى (١٥) كيلومتر فى الدقيقة الواحدة.

وهناك اعتبارات أخرى لأهمية الوقت ترجع إلى تزويد الطائرات بكامل تسليحها، وهذا يعنى عدم استخدام خزانات وقود إضافية ـ أو احتياطية ـ لأن مثل تلك الخزانات تكون على حساب حمولة الطائرة من الصواريخ التى ستنطلق إلى الأهداف المعادية، وكان هذا معناه أن الطائرات ستقوم باستخدام الوقود من خزاناتها الأصلية ولن تعتمد فى بداية طيرانها على وقود تستهلكه من خزانات إضافية سرعان ما تتخلص منها فى مرحلة العمليات وتستخدم وقود الخزانات الأصلية عند العودة.

والاعتماد على وقود الخزانات الأصلية فى الذهاب ولحظة الهجوم وفى العودة يوفر للطائرات تسليحا كاملا لكنه يتطلب اختصار الوقت إلى أقل زمن يكفى لأداء المهمة بنجاح حتى لا يقل الوقود عن المستوى الآمن.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن تجاربنا السابقة فرضت علينا الحرص والدقة عند استخدام قواتنا الجوية، وكانت الخطة الهجومية تعتمد على قيام طائراتنا بضرب الأهداف الأرضية الإسرائيلية مع تجنب الدخول فى معارك جوية مع طائرات العدو قد تعرقل القيام بالمهمة المنشودة.

لكن ذلك لم يمنع من التحوط لمواجهة أى هجوم جوى معادٍ وقيام طائراتنا بالتصدى له، وهو ما كان موكولا إلى سرب من طائرات «الميج ٢١» تمركز فى قاعدة أبى صوير لكن العدو لم يتمكن من القيام بهجوم جوى سريع فقد ظل لساعات طويلة يعانى من الارتباك والحيرة وأثر المفاجأة التى حققتها قواتنا الجوية ومن ورائها قوات العبور.

لقد كان الهدف الواضح للضربة الجوية الأولى هو تحقيق العامل النفسى والتمهيد الميدانى لقيام قواتنا البرية بعملياتها بينما العدو يعانى من التأثير النفسى لضرباتنا الجوية فقد كان معروفا أن العدو يتأثر نفسيا بضرب أهدافه الأرضية جوا ويعيش معتمدا على ما يردده كثيرا حول تفوقه الجوى وتأثيره النفسى على قواتنا.

لقد حققت القوات الجوية كل ذلك فى أقل من عام كامل من اليوم «ى» والذى تحدد بعد ذلك بيوم السادس من أكتوبر، وقد استغرق هذا الإعداد والتدريب ما يقرب من عام ونصف رغم أن التنفيذ لم يكن وشيكا، وهذا ما منح القوات الجوية فرصة مضاعفة لحشد المزيد من القوى البشرية والإمكانات لساعة الصفر التى حانت بعد عام من الاجتماع الذى عقد فى منزل السادات بالجيزة.

وكان قائد القوات الجوية يحمل معه عند ذهابه إلى بيت الرئيس السادات تفاصيل الاستعدادات التى حققتها قواته ونتائج التدريب والمستوى الذى وصل إليه الطيارون المصريون، وربما لم يكن يعلم أن هذا الاجتماع التاريخى سيشكل تغييرا بالغا فى مسار الإعداد للمعركة.

انعقد الاجتماع مساء يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ بحضور جميع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ورؤساء الأفرع الرئيسية، وكان الرئيس السادات قد طلب صباح اليوم نفسه الاجتماع بهم فى بيته.

ضم الاجتماع الفريق أول محمد صادق «وزير الحربية» والفريق سعد الدين الشاذلى «رئيس أركان حرب القوات المسلحة» واللواء طيار محمد حسنى مبارك «قائد القوات الجوية» واللواء بحرى محمود فهمى «قائد القوات البحرية» واللواء محمد عبدالغنى الجمسى «رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وواحد من أبرز ضباط المدرعات» واللواء محمد محرز «مدير إدارة

المخابرات الحربية» واللواء سعيد الماحى «قائد سلاح المدفعية» واللواء عبدالمنعم واصل «قائد الجيش الثالث الميدانى» واللواء على عبدالخبير «رئيس هيئة التدريب» واللواء نوال عامر «رئيس هيئة الإمداد والتموين» واللواء سعد مأمون «قائد الجيش الثانى الميدانى».

كان الشعور بخطورة هذا الاجتماع يسود بين الجميع، لكن التفاؤل كان يملأ وجدان الكثيرين، فى حين أن البعض كان متحفزا لإعلان معارضته لشن حرب هجومية على العدو، وكان وزير الحربية فى ذلك الوقت الفريق «محمد صادق»، قد فاجأ الجميع أثناء اجتماعهم برئيس الأركان فى التاسعة من صباح نفس اليوم واستدعاهم إلى مكتبه فى الثانية عشرة ظهرا وطالبهم بعرض الصعوبات التى تواجه فكرة عبور القناة على الرئيس السادات الذى سيجتمع بهم مساءً فى بيته ليسمع منهم ما يتصور أنه مبالغات يرددها الوزير صادق.

وفى اجتماعهم بوزير الحربية تكلم الجميع عن المتاعب والمشكلات التى مازالت تواجهه باستثناء مدير هيئة العمليات اللواء محمد الجمسى وقائد القوات الجوية اللواء طيار حسنى مبارك، فى حين كان الآخرون أكثر حذرا من غيرهم، وشهد اجتماع الجيزة مناقشات حامية تكشف عن اختلاف كبير فى وجهات النظر.

قال السادات: إن القضية لن تتحرك سياسيًا إلا إذا أمكن تحريكها عسكريًا، وأنه يعتمد على رجالنا فى القوات المسلحة ولا

يقبل بقاء أية وحدات سوفيتية فى مصر ليست تحت القيادة المصرية، وأعلن أنه قال ذلك للمارشال جريشكو عندما زار مصر فى شهر مايو وطلب منه إبلاغ القيادة السياسية فى الاتحاد السوفيتى بذلك.

وأكد للمجتمعين أن العلاقات مع الاتحاد السوفيتى لم تتأثر بقرار إنهاء عمل المستشارين الروس فى مصر وأنهم قالوا ذلك للرئيس حافظ الأسد خلال رحلته السرية إلى موسكو، ولذلك أرسلنا عزيز صدقى إليهم ليطلب طائرات جديدة وقطع غيار وقد أكدوا له أن الاتفاق الودى الذى عقد بينهم وبين أمريكا لن يؤثر على علاقتهم مع مصر والتزامهم بإمدادنا بالسلاح.

ويبدو أن هذه الكلمات كانت تهدف إلى اطمئنان القادة ومحاصرة موجة المعارضة السائدة بين بعضهم للعمليات الهجومية.

واستطرد السادات قائلا: أنا الآن أطالبكم بإعداد خطة هجومية وتحديد موعد تنفيذها طبقًا لما بين أيدينا من إمكانات، وعلينا أن نضع الخطة التى تعتمد على ما يتوافر معنا وليس على المفروض توافره، وأنا أقول لكم بصراحة: إن المتوافر لدينا الآن من سلاح ومعدات وتجهيزات هى التى سندخل بها المعركة، وعليكم جميعًا أن تضعوا خطة هجومية لا تعتمد على شىء آخر سوى ما معنا من سلاح.

وأنا طلبت الاجتماع بكم لأستمع إلى المشاكل والمعوقات ونحاول أن نواجهها ونذللها، وأحب أن أضعكم فى الصورة.. هذا

اجتماع ستعقبه اجتماعات أخرى مع الخارجية والداخلية والتموين والإعلام وجهاز المخابرات العامة، وسأبحث مع كل جهة قرار الحرب على كل المسارات بالإضافة إلى بحث المسار السورى والمسار العربى والدولى، وسنحدد موقف الجبهة الداخلية والتموين وخطوات حشد الرأى العام الداخلى، بالإضافة إلى المساندة العربية والعالمية.

وعلى المسار العسكرى نجحنا فى التحول إلى الهجوم، وقد تابعت معكم المشروع الهجومى منذ بدايته، والمطلوب الآن هو أن يكون واضحًا للجميع أن خطة الهجوم لابد أن تستكمل بالأسلوب الذى يناسب ما بين أيديكم.

وجاءت هذه الكلمات لتشكل نوعًا من الصدمة لبعض القيادات العسكرية التى ضمها هذا الاجتماع، خاصة الفريق صادق. لقد كان واضحا أن السادات يحاول إجهاض ما سيخوض فيه المجتمعون حول المشاكل القائمة والصعوبات التى تواجهها القطاعات المختلفة، وجاء رد الفعل سلبيًا من البعض - خاصة وزير الحربية الفريق أول محمد صادق - ولم تمض (٤٨) ساعة على هذا الاجتماع حتى صدر قرار بإعفاء محمد صادق وتعيين الفريق «أحمد إسماعيل على» وزيرًا للحربية، وإعفاء اللواء بحرى «محمود على فهمى» قائد القوات البحرية وتعيين «اللواء فؤاد ذكرى» قائدًا للبحرية، كما شملت حركة الاستبعاد كل من أبدى عدم اقتناع بكلام الرئيس وبحتمية الحرب وهم الفريق عبدالقادر حسن واللواء على عبدالخبير واللواء محمد محرز مدير إدارة المخابرات الحربية وتم تعيين اللواء فؤاد نصار بدلاً منه.

وبعد استبعاد المعارضين لفكرة الحرب بواسطة ما يتوافر من سلاح ومعدات بدأت عجلة الحرب فى الدوران على مدى عشرة أشهر كانت تجرى خلالها عمليات تمويه وخداع استراتيجى تمهد لحلقات أخرى من الخداع التكتيكى الذى سبق ساعة الصفر بأسابيع قليلة أو بأيام محدودة.

وخلال تلك الفترة استكملت قواتنا الجوية استعداداتها وواصلت تدريب الطيارين على المهام الموكولة إليهم، كما تمت صفقة تسليح جديدة ضمت طائرات وذخيرة وقطع غيار للطائرات.

وعلى الجانب الآخر من أرض الصراع كان العدو الإسرائيلى ينظر للأمر من زاوية أخرى تؤكد عدم جدية مصر فى الهجوم، ورسخ ذلك فى وجدان القادة العسكريين هناك والذين ظلوا يتوهمون عدم قدرة القوات المصرية على عبور القناة وعدم استعداد الطيران المصرى للقيام بأية عمليات هجومية.

وكان من أسباب اطمئنان إسرائيل القرار الذى صدر بتسريح ٣٠،٠٠٠ (ثلاثين ألف) مجند مصرى وإحالتهم إلى الاحتياط، ولم يتنبه العدو إلى أن المجندين الذين شهدوا أحداث يونيه ٦٧ بقوا فى الخدمة لسنوات طويلة إلى أن تم تسريح الثلاثين ألفًا فى يولية ١٩٧٢. ورأى الإسرائيليون فى ذلك مؤشرًا من مؤشرات اليأس عند المصريين دون أن يتنبهوا إلى أن الجنود المسرحين كانوا من غير حملة المؤهلات ومعظمهم من العاملين فى مواقع غير قتالية وليس منهم من يشارك فى الوحدات الضاربة.

ولعب قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت نفس الدور، لكنه كان دورًا مزدوجًا لأنه وضع القيادات العسكرية فى مصر أمام مسئولياتها كاملة وضاعف من حماس ضباط العمليات، وفى الوقت نفسه أكد الإحساس لدى العدو بعدم جدية مصر فى الاستعداد للعبور.

وبقدر ما كان قرار تسريح (٣٠) ألف مجند فى يولية ١٩٧٢ مرحلة مهمة من مراحل الإعداد بقدر ما ساعد على خداع العدو ورسوخ مشاعر الاطمئنان والترهل فى وجدانه ووجدان قادته العسكريين والسياسيين على السواء.

والواقع أن الاستغناء عن هذا العدد الكبير من المجندين كان جزءًا من تطوير خطة التعبئة العامة فى مصر بعد قرار إيقاف نقل الجنود إلى الاحتياط الذى صدر عام ١٩٦٧ والذى كان له تأثيره على معنويات الأفراد بعد أن مضى عليهم فى التجنيد ما يقرب من ست سنوات، كما كان يشكل عبئًا ماليًا كبيرًا دون جدوى لوجود معظمهم خارج التشكيلات المقاتلة وفى مواقع خلفية ضمن أعداد كبيرة مخصصة لحماية العمق وحراسة المنشآت الحيوية.

وبقدر ما أفادت خطة تطوير التعبئة بقدر ما ساعدت على خداع العدو الذى استراح إلى قرارات تسريح الجنود المصريين ونقلهم إلى الاحتياط.

وفى الوقت نفسه كانت أجهزة التعبئة قد أدخلت نظام الاستدعاء بواسطة الكمبيوتر واستفادت من نظم الاستدعاء

المطبقة فى كل من السويد وسويسرا وإسرائيل وهى نظم متطورة للغاية وتعتمد على أجهزة الكمبيوتر.

وشهدت الشهور الأولى من عام ١٩٧٣ الكثير من القرارات والتحركات التى أسهمت فى الخداع الاستراتيجى للعدو ومهدت لعمليات الخداع التكتيكى بعد ذلك.

ولعب الطيران دورا فى خطة الخداع بعد أن حرص على إخفاء تدريب الطيارين على العمليات الهجومية والظهور فى طلعات تدريبية تركز على العمل فوق الخطوط المصرية غرب القناة والتظاهر بالاتجاه نحو الدفاع عن المناطق الحيوية بهدف إطالة خطوط طيران العدو من قواعده على قدر الإمكان، كما بدأنا فى إقامة مطارات جديدة لم يكن من المقرر لها أن تنتهى قبل عام أو عامين مما يؤكد عدم استعداد المصريين للحرب،ومن أمثلة ذلك البدء فى إنشاء مطار فى بطن جبال البحر الأحمر بمعاونة خبراء فى إقامة الأنفاق الجبلية، وبدأ بناء مطار النفق الجبلى فى مايو ٧٣، وكان القادة الذين يتجهون لزيارة الجبهة يزورون هذا المشروع مؤكدين على أهمية المطارات الجديدة فى الخطة الهجومية.

وكان العدو يهتم بصورة خاصة بجمع المعلومات عن قواتنا الجوية، وكل ما حصل عليه من معلومات ساعدت على تضليله ونجاح الخطة المصرية لخداعه، وكانت هناك جاسوسة أمريكية تشغل منصبا دبلوماسيا فى القاهرة اسمها «سو آن هاريس» وتعمل فى قسم رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة حيث كانت

العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع الولايات المتحدة، وكان يعمل مع «الآنسة سو آن» شاب مصرى من أصل يونانى اسمه «طناشى راندو بولو» تردد على إحدى القواعد الجوية المصرية عن طريق أحد الخبراء السوفييت، وحرص على إقامة علاقات صداقة قوية مع الخبراء وعلى جمع معلومات من صديق له اسمه «بيليكوف» ظل يعمل فى القاعدة الجوية المصرية لمدة عامين وكان على اتصال دائم بالجاسوس طناشى. وعندما عاد بيليكوف إلى بلاده قدم إلى «طناشى» خلفه «فيكتور» ومساعده «يورى» واستطاع الجاسوس طناشى أن يدخل إلى القاعدة بواسطتهما ويتجول داخلها وينقل المعلومات إلى الآنسة «سو» فى مبنى القنصلية الأمريكية بالقاهرة.

ومن أهم المعلومات التى قدمها طناشى إلى الجاسوسة الأمريكية أن الطائرات المصرية داخل مخازن خرسانية لوقايتها من الهجمات المعادية وأن الفكر الدفاعى يسيطر على العاملين بالقوات الجوية، وأن مصر لا تريد إشراك طيرانها فى أية عمليات، وتحتفظ بالطائرات داخل خزائن من الأسمنت المسلح.

وقللت تقارير طناشى كثيرًا من قيمة أجهزة الرادار المصرية، ونقل إلى الجاسوسة الأمريكية تأكيدات الخبراء السوفييت عن وجود أجهزة رادار فى روسيا تتفوق كثيرًا على الأجهزة التى حصلت عليها مصر.

وأهم فقرة فى آخر تقرير قدمه الجاسوس عن مصر قبل القبض عليه تقول :

«إن المصريين غيرمستعدين وغير قادرين وغير جاهزين للحرب.. وقد يمر وقت طويل جداً قبل أن يصبحوا قادرين على استئناف القتال من جديد».

وتم القبض على طناشى وعلى الجاسوسة الأمريكية - سو آن هاريس - وأكدت التحقيقات أن هذه المعلومات كانت تنقل إلى الولايات المتحدة أولاً بأول وأنه من المؤكد أنها كانت تجد طريقها إلى تل أبيب فى إطار اتفاقيات التعاون فى مجال المعلومات.

وتم استدعاء الجنرال - أوكينيف - كبير المستشارين السوفييت فى مصر - وإبلاغه بالأمر وتم الاتفاق معه على عدم إثارة الموضوع بصورة علنية وترك الأمر للسوفييت، ليعالجوه بطريقتهم والتصرف مع الأفراد الذين قاموا بتسريب هذه المعلومات مع اتخاذ الإجراءات المناسبة التى تضمن عدم تكرار مثل هذا الحادث، وقبل أن يمضى أسبوع واحد على القبض على الجاسوسة الأمريكية وعميلها طناشى صدر أمر بالإفراج عنها وترحيلها إلى بلادها.

ورغم المعلومات التى كان يجمعها العدو عن قواتنا، فإنه لم يفهم أبدا ما يختفى وراءها.

وبالنسبة للقوات البرية وسلاح المهندسين كانت التحركات المتكررة للوحدات المختلفة تشكل لغزاً للعدو الذى لم يفهم الدافع وراء معظم تلك التحركات، لقد كان سلاح المهندسين يدفع فى النهار بمعدات العبور وببعض الجسور والكبارى فى اتجاه قناة السويس عند مواقع الجيشين الثانى والثالث الميدانيين ثم يعيد

سحبها ليلاً، وكثيرًا ما تحركت كتائب وألوية بالكامل شمالاً وجنوبًا ومن الغرب إلى الشرق وبالعكس دون أن يكون لذلك سبب مفهوم.

ووقع العدو فى الفخ، وظن لعدة مرات أن هناك استعدادات حقيقية للعبور، وأعلن حالة الطوارئ أكثر من مرة ليكتشف أنه تحمل الكثير من الأعباء الإدارية والمالية والعسكرية دون جدوى.

وبدأ يرسخ فى وجدان القيادة الإسرائيلية أن هذه التحركات مجرد لعبة مصرية من ألعاب الاستنزاف، استنادًا إلى اعتماد القوات الإسرائيلية الضاربة على نسبة عالية من أفراد الاحتياط وأن استدعاء الاحتياط يمثل عبئًا مزدوجًا على القيادات العسكرية فى إسرائيل وعلى القطاعات المدنية التى يقوم عليها أفراد الاحتياط.

وساعد ذلك على تبرير التحركات العسكرية المصرية قبل أيام من معركة العبور وأسهم فى إساءة تفسيرها من قبل القادة الإسرائيليين، لكن الواقع أن هذه التحركات المصرية التى ظلت غامضة فى نظر العدو كانت تمثل حلقة فى سلسلة المشروعات التدريبية للوحدات المختلفة والتى توجتها مناورات خريف ٧٣ التى عرفت بأنها مشروع تدريبى تعبوى و أصبحت ظهر يوم السادس من أكتوبر خطة الهجوم التى مكنت أكثر من (٤٠) ألف رجل من عبور قناة السويس فى أقل من ست ساعات.

الخطة تعتمد
على بدء الهجوم جواً

عندما تحدث الرئيس فى اجتماع الجيزة عن التحول إلى الهجوم وقال: إنه يتابع المشروع الهجومى منذ بدايته، فقد كان يعنى التحول عن التعديلات التى تمت على الخطط السابقة، وكان أكثر ما يشجع على تطوير الخطة الهجومية هو قدرة القوات الجوية على القيام بعمليات هجومية وأن تبدأ الحرب بضربة جوية مركزة وسريعة تفقد العدو سيطرته. وترسخت هذه الثقة فى القوات الجوية رغم تجاهل السوفييت طلب مصر شراء ١٠٠ طائرة جديدة، ورفض بريطانيا بيع طائرات طراز «جاجوار» سبق أن تفاوضت على شرائها بتمويل من دولة عربية - وهى السعودية - وتم إبلاغ الرفض إلى حافظ إسماعيل عندما التقى مع رئيس الوزراء البريطانى سير «دوجلاس هيوم» فى لندن يوم الإثنين ١٩ فبراير ١٩٧٣ عقب إجازة آخر الأسبوع، وكان حافظ إسماعيل فى طريقه إلى الولايات المتحدة للاجتماع سرا مع «هنرى كيسنجر» فى مزرعة رئيس شركة البيبسى كولا.

وقبل أن يغادر حافظ إسماعيل لندن عقد اجتماعا قصيرا مع رئيس الوزراء الذى أبلغه اعتذار المملكة المتحدة عن بيع الطائرة

«جاجوار» لمصر وقال له: «إن هذه الطائرة متقدمة جدا وأن دخولها إلى ساحة العمل العسكرى فى الشرق الأوسط سيؤدى إلى تغيير كبير فى ميزان القوى وتصعيد سباق التسلح.

وربما علمت إسرائيل برفض بريطانيا بيع طائرات متقدمة لمصر مما يدعم لديها الاتجاه إلى عدم قدرة مصر على القيام بعمليات هجومية، خاصة باستخدام السلاح الجوى.

وما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ساعد على ترسيخ ذلك لدى القادة الإسرائيليين، رغم أن اللقاء الذى تم بين كيسنجر ومستشار الأمن القومى المصرى حافظ إسماعيل كان لقاءً سريا، أو يفترض أن يكون كذلك.

لقد كانت فكرة اللقاء السرى تهدف ـ حسب الرؤية الأمريكية ـ إلى خروج مصر من حالة اللا سلم واللا حرب وتحريك الموقف على المستوى السياسى، لكن بعض المحللين ذهبوا إلى أن هذا كان تظاهرا يهدف إلى ترسيخ خطة الخداع التى تجعلهم يتصورون أن مصر تقوم بالبحث عن حل سلمى ـ وقد تقبل حلاً جزئيًا وسطًا ـ بسبب عجزها عن شن عمليات هجومية عبر قناة السويس ومواجهة المستحيل المتمثل فى المانع المائى والساتر الترابى وخط بارليف الحصين، مما يجعل العبور إلى شرق القناة انتحارا مؤكدا.

ولا نستطيع أن نرجح إحدى النظريتين، لكن الثابت هو أن عجلة الحرب كانت قد بدأت فى الدوران قبل أن يذهب حافظ إسماعيل إلى مزرعة رئيس البيبسى كولا.

كانت مصر قد تلقت اقتراحا أمريكيا من خلال مستر دونالد كندال ـ رئيس مجلس إدارة شركة بيبسى كولا ـ لعقد اجتماع سرى بين هنرى كيسنجر وحافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى المصرى فى مزرعته فى كونيكتيكت خلال إجازة نهاية الأسبوع، وتم بالفعل الاجتماع يوم الأحد ٢٥ فبراير ١٩٧٣ ولم يسفر عن أى موقف إيجابى من الولايات المتحدة ووزيرها كيسنجر الذى تحدث عن عدم وجود متغيرات جديدة تشجع على مبادرة أمريكية، ورسخ فى وجدانه عجز مصر عن التحرك عسكريا.

وربما كان ذلك هو المطلوب بالنسبة للموقف المصرى بعد أن بدأت عجلة الحرب فى الدوران طبقا لخطة الهجوم التى تم وضعها دون علم الاتحاد السوفيتى، والذى ظل يعتقد أن الخطة المصرية هى مجرد تعديل الخطة التى شارك فى وضعها خبراء سوفييت.

وبدأ إدخال التعديلات الجديدة على الخطة مع بداية العام ١٩٧٢ وعلى ضوء تدعيم القوات المختلفة، خاصة القوات الجوية، لكن جوهر الخطة لم يتغير وإنما تغير اسم الخطة الممكنة القابلة للتنفيذ فى ظل الإمكانات المتوفرة، خاصة مع عدم توفر العدد الكافى من صواريخ أرض جو «طراز سام» التى يمكن أن تنتقل إلى شرق القناة لتوفير الحماية للقوات التى ستتقدم شرق القناة بعد أن تخرج من نطاق حائط الصواريخ الذى يعمل من قواعده غرب القناة.

وأهم ما حققته القوات الجوية فى هذه المرحلة هو حسن استخدامها للإمكانات المتاحة للتصوير الجوى وتفسير هذه الصور وسرعة تسليمها فى وقت يتيح لسائر القوات الاستفادة منها.

وأصبح الرأى الراسخ لدى قادة القوات ورؤساء الأفرع هو أن قواتنا قادرة على القيام بالعملية الهجومية وتمت مناقشة ذلك فى الاجتماع الذى تم فى استراحة رئيس الجمهورية بالقناطر الخيرية وفى وجود وزير الحربية الجديد «أحمد إسماعيل على»، وفى هذا الاجتماع كان ربيع العام ١٩٧٣ هو الموعد المحتمل للهجوم، ولكن ذلك كان بصورة مبدئية.

وكانت هناك بعض الأمور المشجعة التى تعتبر إيجابية من أهمها ما حققته القوات الجوية من تطور ملموس بالإضافة إلى ارتفاع مستوى الطيارين المصريين الذين تفاعلوا مع خطط التدريب المكثف بما فى ذلك التحليق على ارتفاعات منخفضة جدا يتيح للطائرات مفاجأة العدو بضرب الأهداف المحددة لها وتنفيذ خطط العودة إلى قواعدها، لكن الذى كان يدعو للقلق هو قدرة العدو على القيام بهجوم مضاد وكان السؤال المطروح هو كيف سيقوم بهذا الهجوم المضاد، والأهم هو متى سيقوم به؟.

وكان المجتمعون فى استراحة القناطر الخيرية يتوقعون أن العدو سيكتشف بالتأكيد نية القيام بعملية هجومية ضد قواته قبل موعدها بثلاثة أيام، فى حين كانت هناك تقارير متشائمة أعدتها المخابرات الحربية تتضمن أن هناك احتمالات كبيرة بأن

يعرف العدو استعدادنا لعملية هجومية بمجرد بداية العد التنازلى والمقرر له «١٥» يوما أى أنه سيبدأ فى الإعداد لعمليات إجهاضية أو استباقية فى اليوم «ى ناقص ١٤» أى قبل ساعة الصفر بإسبوعين.

لكن ذلك لم يتحقق وانتصرت النظرة التفاؤلية.. بل وأكثر من ذلك.

وبدأ وضع اللمسات الأخيرة مع استبعاد شهر سبتمبر ليكون اليوم «ى» هو السادس من أكتوبر وساعة الصفر «س» هى الساعة (١٤٠٠) أى الثانية بعد الظهر، وهو ما كان موضع خلاف مع القادة السوريين فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية السورية الذى تم فى قصر رأس التين بالإسكندرية على مدى ستة أيام متصلة لم يغادر خلالها أحد من المجتمعين القصر اعتبارا من بداية الاجتماع بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢١ أغسطس ١٩٧٣ وكان لهذا الخلاف صلة مباشرة بخطة الضربة الجوية التى ستبدأ بها العمليات الهجومية ظهر السبت السادس من أكتوبر.

وتلك قصة أخرى معروفة ورغم ذلك نرى العودة إليها فى سياق التسلسل المتلاحق للأحداث.

لقد اعتمدت الخطة على قيام قواتنا الجوية بضربة مركزة على جميع الأهداف المعادية التى قد تؤثر على عملية العبور، وتشمل هذه الأهداف: مطارات العدو، وبطاريات المدفعية، وقواعد الصواريخ المعادية «هوك»، ومراكز السيطرة والإعاقة،

وأهمها مراكز التشويش الإلكترونى التى أقامها العدو فى سيناء بعد احتلالها.

وكانت هناك أدوار أخرى مهمة للقوات الجوية غير تحقيق الضربة الجوية، وهى المشاركة فى عمليات إبرار جوى وبحرى لعرقلة تقدم العدو فى مواجهة قواتنا، وتأخير أى هجمات مضادة يقوم بها.

. وهكذا استطعنا أن نعكس الآية، وأن نقلب السحر على الساحر، وفى الوقت نفسه كنا حريصين على سلامة الطيارين المصريين وعدم الدفع بهم فى مغامرات جوية، وكانت الخطة المصرية تعتمد فى التصدى لأى هجمات جوية معادية على الدفاعات الأرضية القوية وما كان معروفا فى ذلك الوقت باسم «حائط الصواريخ» الذى شكل رعبا متزايدا لطيارى العدو بالإضافة إلى سرب الطائرات المقاتلة «الميج ٢١» المتمركز فى قاعدة أبى صوير والمستعد للتصدى لأى هجوم جوى معادٍ.

وهناك إجماع على أن الصواريخ المصرية المضادة للطائرات «طراز إس إيه إم» sam قد أثبتت كفاءة بالغة خلال حرب الاستنزاف بين عامى ١٩٦٨ و١٩٧٠ وكان لها مواقف مشهودة خلال الاشتباكات مع الطيران المعادى عقب وقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ حيث لم يحترم الطيران الإسرائيلى وقف إطلاق النار وحاول لمرات عديدة اختراق المجال الجوى المصرى مع حرصه على تجنب المناطق التى تدخل فى نطاق صواريخ «سام» التى ظلت تشكل رعبا للطيارين الإسرائيليين، ويفسر ذلك الأوامر

المشددة التى تلقاها الطيارون الإسرائيليون بعدم الاقتراب من ضفة القناة لأقل من ١٥ كيلومترا.

وكان لابد من أن تضع القيادة المصرية ذلك فى حساباتها عند التخطيط للمعركة الهجومية وأن تحرص على أن تكون حركة القوات البرية تحت مظلة الدفاعات الجوية، وهذا ما أدى إلى الإجراءات التى قامت بها القيادة المصرية منذ آخر ضوء يوم السادس من أكتوبر ٧٣ لتوفير دفاع جوى لقواتنا شرق القناة ولمسافات تتراوح بين (١٠ و١١) كيلومترا من الضفة الشرقية لقناة السويس معتمدة على صواريخ أرض جو «طراز سام ٦» خفيفة الحركة.. وكانت الدروس المستفادة من حرب الاستنزاف تؤكد أن أى هجوم جوى معاد يفقد تأثيره بالنسبة للقوات المحمية داخل الخنادق، فى حين أن تأثيره يكون كبيرا على القوات الأرضية إذا قام العدو بمهاجمتها جوا وهى فى أرض مكشوفة.

ولا بد من الإشارة إلى أن استجابة الاتحاد السوفيتى لمتطلباتنا من الطائرات لم تكن مشجعة رغم أنها تستند إلى خطة هجومية تم إشراك الخبراء السوفييت فيها ويتطلب تنفيذها شراء «١٠٠» طائرة طراز «ميج ٢١ إف إم» وكنا نعلم أن السوفييت ليس لديهم استعداد لقبول ذلك رغم أنّ الخطة كانت موضوعة تحت سمع وبصر الخبراء السوفييت، لكنهم كانوا يتهموننا دائما بالمغالاة فى مطالبنا.

ولم يكن السوفييت يعلمون أن القيادة العسكرية فى مصر قد وضعت خطة هجومية أخرى تعتمد على ما يمكن توفيره من

المعدات والطائرات وأن لها اسمًا كوديًا آخر وهى تختلف كثيرا عن الخطة التى يعرفها السوفييت.

وفى الاجتماع الذى عقد فى استراحة رئيس الجمهورية فى القناطر الخيرية وشهده وزير الحربية الفريق أحمد إسماعيل ـ بعد استبعاد الفريق محمد صادق من منصبه ـ نفى قائد القوات الجوية من جديد ما كان يتردد من قبل على لسان بعض القادة المستبعدين عن قلة الإمكانات والتفوق النوعى للعدو بالنسبة لقواته الجوية، خاصة أن بعض المقالات كانت تتعرض صراحة لتفوق العدو وما يحصل عليه من طائرات متقدمة من فرنسا والولايات المتحدة. وكانت كلمات قائد القوات الجوية مختصرة وحاسمة عندما أعلن استعداد القوات الجوية للقيام بما هى مكلفة به من مهام.

وكان ذلك يوافق ما تهدف إليه خطة تعتمد على ما يتوافر من إمكانات قبل أن تعتمد على ما يجب توفيره، مع العمل على سد النواقص ودعم الأسلحة المختلفة بكل ما يمكن توفيره لها قبل ساعة الصفر.

ولم يشارك فى اجتماع القناطر أحد ممن يبالغون فى سرد الصعوبات التى تواجه الخطة الهجومية وعدم قدرة الطيران المصرى على القيام بالتمهيد النيرانى للهجوم وقصف الأهداف المطلوبة فى سيناء بدعوى أن مثل هذه العملية ستسفر عن خسائر قد تصل إلى ٨٠٪ من طائراتنا، والأكثر خطورة هو ما كان يقوله وزير الحربية السابق ـ محمد صادق ـ عن خسائرنا فى الطيارين الذين لن نستطيع تعويضهم قبل سنوات طويلة.

وبعد استبعاد أصحاب هذه النظرة الرافضة للعمليات الهجومية تبلورت الخطة بحيث تبدأ بالضربة الجوية لتدمير الأهداف المحددة بدقة بالغة وعناية كبيرة لحرمان العدو من استخدام محطات الشوشرة الإلكترونية وبطاريات الدفاع الجوى ومحطات الرادار ومراكز القيادة والسيطرة.

وظل الأمل معقودا على نجاح الطيران المصرى فى تحقيق مهمته؛ وما سيعقب ذلك من قيام طلائع القوات البرية بعبور المانع المائى، وإزالة الساتر الترابى، واقتحام مواقع خط بارليف المنيع.

كانت الخطة تستند إلى عقيدة عسكرية مصرية تختلف فى فكرتها عن خطط عبور الموانع المشابهة فى التاريخ العسكرى، لقد تولدت هذه العقيدة عن فكرة استبعاد بدء الهجوم من محاور واضحة، أو التركيز على مواجهات صغيرة لأن ذلك يعرض قواتنا لضربات مضادة مركزة أثناء عملية العبور أو حتى قبل ذلك أثناء تجمعها فى اتجاه الاختراق، ولن يكتشف العدو محاور الهجمات الرئيسية عندما يرى القوات المصرية تعبر القناة بطول المواجهة وعلى امتداد الجبهة كلها، ولذلك اعتمدت الخطة على استخدام فرق المشاه - وعددها خمس فرق - من مواقعها الدفاعية غرب القناة لتبدأ الهجوم من القطاعات التى فى مواجهتها وأتاح ذلك لها البقاء وسط استحكاماتها وداخل خنادقها مما يوفر لها الحماية فضلا عن أثر ذلك فى خداع العدو ودفعه إلى استبعاد قيامها بعمليات هجوم مضاد واسعة بطول الجبهة.

وتطلب ذلك دعم فرق المشاه الخمس بلواء مدرع، وكل ما يمكن تدبيره من صواريخ «مالوتكا» المضادة للدبابات ـ والتى أطلقنا عليها اسم فهد ـ والتى تم سحبها من التشكيلات الأخرى غير المشاركة فى العبور وضمها إلى الفرق الخمس، وقد أثبتت هذه الصواريخ كفاءة عالية فى مواجهة أول هجوم مدرع قام به العدو بعد ذلك؛ بفضل حسن استخدام الجندى المصرى لها وشجاعته فى التصدى بهذا السلاح المحمول لمدرعات العدو، وبهذه الصواريخ التى حملت الاسم المصرى «فهد» استطاع الجنود تحطيم لواء مدرع بالكامل مع أول استخدام لها وتم أسر قائده الذى كان أشهر أسير إسرائيلى فى الحرب وهو العقيد «عساف ياجورى».

ونعود إلى ما كان وراء قيام الطائرات المصرية بالضربة الجوية المكلفة بها فى الساعة الثانية بعد ظهر السبت السادس من أكتوبر، وكيف تم تحديد اليوم «ى» والساعة «س» وكيف تم حسم الخلاف حول ذلك فى الاجتماع المشترك للمجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية السورية والذى عقد بالإسكندرية.

لم يكن اختيار ساعة الصفر له علاقة مباشرة بالموعد المقرر لتوجيه الضربة الجوية، وإنما كان الاختيار يرجع إلى حسابات كثيرة ومعقدة انتهت إلى اختيار اليوم والساعة، وأصبح على القوات الجوية أن تنفذ مهامها طبقا لذلك، وربما كانت هناك نقطة ايجابية يستفيد منها الطيارون المصريون وهى وجود قرص الشمس خلفهم وهم متجهون إلى قصف الأهداف المعادية،

وعليهم أن يتعاملوا مع العكس فى رحلة عودتهم إلى قواعدهم بعد أداء المهمة.

وقصة هذا الاختيار بدأت قبل ذلك بشهور طويلة عندما عكفت مجموعة من ضباط هيئة العمليات على دراسة أنسب الأيام وأفضل الساعات للقيام بالعملية الهجومية التى تبدأ بالضربة الجوية التى ستفتح الطريق أمام العبور البرى باتساع الجبهة كلها.

كان الهدف من تلك الدراسات البحث عن أفضل شهور السنة، لاقتحام القناة من حيث حالة المد والجزر، وسرعة التيار البحرى واتجاهه، ولم يكن فى ذلك متغيرات كثيرة تختلف من شهر إلى آخر فى مدى تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب وعلى إقامة وتشغيل المعديات والكبارى، إن الفرق فى المنسوب بين أعلى مد وأعلى جزر هو ٨٠ سنتيمترا فى القطاع الشمالى للقناة يصل إلى مترين فى القطاع الجنوبى من الإسماعيلية حتى السويس، وسرعة التيار فى القطاع الشمالى ١٨ مترًا فى الدقيقة تقفز إلى ٩٠ مترًا فى الدقيقة بالقطاع الجنوبى، واتجاه التيار يتغير دوريًا كل ست ساعات من الشمال للجنوب وبالعكس.

وكانت هذه الظواهر الطبيعية لها تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب وعلى إنشاء وتشغيل المعديات والكبارى، وهو ما كان فى الاعتبار عند وضع الخطط القتالية للجيشين الثانى والثالث. أما عن التوقيت فقد كان العامل الأهم هو اختيار يوم يتميز بطول ليله ويكون فى شهر من الشهور التى لا تتعرض لتقلبات جوية

شديدة تؤثر على تحرك القوات، ويناسب العمليات الهجومية من الجبهة السورية.

ولاكتمال عنصر المفاجأة امتدت الدراسة إلى البحث فى العطلات الرسمية فى إسرائيل بخلاف يوم العطلة الأسبوعية وهو السبت.

وبدأ شهر أكتوبر ٧٣ يبرز من وسط كل الاحتمالات التى تجرى دراستها، إنه فى الثلث الثالث من العام وهو داخل الإطار الزمنى الذى حددته القيادة السياسية للعبور، وهو من الشهور التى تجرى فيها مناورات الخريف المعتادة مما يجعل التحركات العسكرية تتم تحت ستار المناورات والمشروعات التدريبية.

وفى هذا الشهر - أكتوبر ٧٣ - تكثر الإجازات فى إسرائيل، ويوجد ثمانية أعياد يحتفل بها الإسرائيليون ومنها: عيد الغفران؛ المعروف باسم يوم كيبور - وعيد المظلات، وعيد التوراة، وتطرقت الدراسة إلى طريقة الاحتفال بكل عيد من هذه الأعياد ومدى تأثيره على إجراءات التعبئة فى إسرائيل.

وفى عيد الغفران - يوم كيبور - وهو يوم السبت - ستتوقف الإذاعة والتليفزيون فى إسرائيل عن العمل وهو يوم صيام يتصف بسكون كامل، وهذا يعنى استحالة استخدام أجهزة الإذاعة والتليفزيون فى استدعاء قوات الاحتياط، وحتى إذا تم تشغيلها فإن أحداً لن يستمع إليها لأن الناس تعرف أن الإذاعة والتليفزيون لا تبث شيئًا فى هذا اليوم، وستضطر القيادة

الإسرائيلية إلى استخدام وسائل أخرى تستغرق وقتًا طويلاً حتى يتم تعبئة الاحتياط.

وهذا الوقت الطويل هو المطلوب بالنسبة لقوات العبور.

وفى هذا اليوم سيكون ضوء القمر ظاهرًا فى النصف الأول من الليل؛ لأنه يوم العاشر من الشهر القمرى، كما أن النصف الثانى من الليل سيكون مظلمًا، وهذا يناسب تمامًا خطة العبور بحيث تنتهى وحدات المهندسين من إنشاء وتركيب الكبارى فى ضوء القمر ليستمر تدفق العبور بالأفراد والأسلحة والمعدات تحت جنح الظلام.

وسيصادف يوم السادس من أكتوبر اليوم العاشر من شهر رمضان ـ وهو شهر الصيام فى مصر وسوريا ـ مما يساعد على خداع العدو ويتيح الفرصة لتمثيل وافتعال احتفالات مع إبراز الانشغال بها واصطناع التكاسل والاسترخاء.

وسينشغل الرأى العام فى إسرائيل كثيرًا مع بداية شهر أكتوبر بالحملات الانتخابية ـ التى ستكون على أشدها ـ استعدادًا ليوم التصويت فى الانتخابات البرلمانية للكنيست والمحدد لها ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣.

وبالنسبة للجبهة السورية كان هذا اليوم مناسبًا ولا يجوز تأخيره عن بدايات أكتوبر حتى نتجنب موسم البرد الشديد وبدء تساقط الجليد.

واكتملت العناصر الملائمة فى يوم السبت السادس من أكتوبر الذى تسبقه أعياد إسرائيلية ويصادف عيد كيبور وتتوقف فيه

الحياة فى إسرائيل وحالة الطقس تناسب الجبهتين المصرية والسورية ويصادف شهر الصيام الذى تستبعد فيه إسرائيل قيام عمليات عسكرية خلاله، وسيكون فرق المنسوب بين المد والجزر فى القناة أقل ما يمكن، مما يتيح أنسب الظروف لعبور القوارب وتشغيل المعديات وعمليات بناء الكبارى.

وانطلاقًا من ذلك بدأ التنسيق مع القيادة السورية وتقرر عقد اجتماع مشترك لأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى كل من مصر وسوريا للاتفاق على جداول العمليات وتوقيتها والتنسيق الكامل بين الجبهتين مع التحديد النهائى لليوم (ى) وساعة الصفر (س).

وجرت الاتصالات بين القاهرة ودمشق لتحديد مكان وموعد الاجتماع ووسائل تأمينه والحفاظ على عناصر السرية التامة التى يجب أن تحاط بتحركات أعضائه، واتفقوا على أن يكون مكان الاجتماع فى الإسكندرية وأن يحضر أعضاء المجلس العسكرى السورى إلى هناك متنكرين فى ملابس مدنية وبأسماء منتحلة.

ووصل إلى قصر رأس التين أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية يتقدمهم اللواء مصطفى طلاس «وزير الدفاع» واللواء يوسف شكور «رئيس أركان حرب القوات المسلحة السورية» واللواء ناجى جميل «قائد القوات الجوية والدفاع الجوى» واللواء حكمت الشهابى «مدير المخابرات الحربية» واللواء عبدالرزاق الدرديرى «رئيس هيئة العمليات» والعميد فضل

حسين «قائد القوات البحرية»، وكان فى انتظارهم سبعة من القادة المصريين هم الفريق أول أحمد إسماعيل «وزير الحربية» والفريق سعد الدين الشاذلى «رئيس أركان حرب القوات المسلحة» واللواء محمد على فهمى «قائد الدفاع الجوى» واللواء حسنى مبارك «قائد القوات الجوية» واللواء فؤاد ذكرى «قائد القوات البحرية» واللواء عبدالغنى الجمسى «رئيس هيئة العمليات» واللواء فؤاد نصار «مدير المخابرات الحربية».. وأصبح العدد «١٤» ضابطًا بوصول اللواء بهى الدين نوفل رئيس أركان القيادة المصرية السورية الاتحادية، واكتمل بذلك المجلس الأعلى للقوات المسلحة (المصرية - السورية) ليبدأ اجتماعه التاريخى.

وتولى اللواء «بهى الدين نوفل» أعمال السكرتارية لهذا المجلس ولم يسمح فيه بالتسجيل أو بدخول أية أجهزة إلكترونية، وكان اللواء الجمسى وحده يكتب الملاحظات ومشروع القرارات ليقدم فى النهاية نسخة منها إلى وزير الحربية المصرى ونسخة مماثلة لوزير الدفاع السورى.

وظهرت فى هذا الاجتماع نقاط خلاف كثيرة رغم الاتفاق التام على الخطوط الرئيسية، وعلى أن القوات المسلحة فى الدولتين جاهزة لتنفيذ المهمة المسندة إليها وأعلنوا أنهم ينتظرون القرار السياسى ببدء الهجوم، لكن اليوم والساعة ظلا موضع خلاف.

اقترح الجانب السورى بدء العمليات خلال الأسبوع الثانى من سبتمبر ما بين ٧ و١١ من ذلك الشهر، وكان الاقتراح الثانى يحدد

يوم الهجوم (ى) ما بين ٥ و١١ أكتوبر، وكان أنسب هذه الأيام بالنسبة للجبهة المصرية هو السادس من أكتوبر.

وتفرعت المناقشات بين الجانبين لتتناول تفاصيل كثيرة اختلفت حولها وجهات النظر، مما ترتب عليه، مد الاجتماعات وتكثيفها حتى استمرت لمدة ستة أيام متواصلة، وتم تحديد فترة العد التنازلى للهجوم بعشرين يومًا تبدأ باليوم (ى ناقص٢٠) أى قبل يوم الهجوم (ى) بعشرين يومًا، ورأى الجانب السورى أن الأمر يقتضى خمسة أيام لتفريغ معامل تكرير البترول فى حمص؛ حتى لا تتعرض للقصف المعادى وهى مليئة بالبترول.

وحول ساعة الصفر (س) اقترح الجانب المصرى أن تكون بعد الظهر، حيث يكون قرص الشمس قد مال نحو الغرب وأصبحت أشعتها خلف المدفعية المصرية ووراء القوات وفى مواجهة العدو الذى سيكون قرص الشمس أمامه، مما يمثل مصدر تفوق للجانب المصرى ويدعم حركة الطائرات المصرية فى اندفاعها شرقا لتدمير الأهداف المقرر تدميرها، لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة للجبهة السورية؛ لأن القوات السورية تتجه فى عملياتها نحو الجنوب الغربى؛ ولذلك يفضل الجانب السورى الهجوم صباحًا لتكون (س) أى ساعة الصفر مع أول ضوء.

واقترح الجانب المصرى تعديل الخطة لتبدأ القوات السورية هجومها مع الفجر وتنطلق القوات المصرية بعد الظهر، واعترض الجانب السورى على ذلك حتى لا يواجه وحده النشاط الجوى الإسرائيلى لعدة ساعات مع احتمال قيام العدو بهجوم مضاد

على الجبهة السورية قبل أن يتجه إلى الجبهة المصرية، كما أن اختلاف (س) سيفقد الخطة مزايا الهجوم المفاجىء على جبهتين.

ودرس المجتمعون اقتراح قيام القوات المصرية بالهجوم بعد ظهر اليوم (ى) وتأجيل الهجوم من الجبهة السورية إلى فجر اليوم التالى، (ى. زائد واحد) لكن هذا الاقتراح تم استبعاده لاعتبارات سياسية باعتباره سيجعل الصورة تبدو كأنها حرب مصرية بدأتها مصر ولحقت بها سوريا فضلاً عن فقدان عنصر العمليات الهجومية المفاجئة من جبهتين.

وقبل أن يتم حسم نقاط الخلاف والتوصل إلى تحديد موحد لليوم (ى) وساعة الهجوم (س) كان الرئيس «أنور السادات» قد بدأ جولة فى عدة بلاد عربية لتشكل فى حد ذاتها آخر حلقات الخداع الاستراتيجى وبداية مراحل أخرى من الخداع، زار السادات أولاً المملكة العربية السعودية ليجتمع مع الملك فيصل وترك انطباعًا بأنه يبحث فى الزيارة عن دعم سياسى سعودى فى مجال الحل السلمى، بالإضافة إلى تمويل صفقة طائرات بريطانية طراز «جاجوار» وهو ما كان الإنجليز يرفضونه ويعلنون عدم موافقتهم على تزويد مصر بهذه الطائرات المتقدمة.

وتكاملت الجهود الدبلوماسية مع النشاط الإعلامى فى أوروبا وفى دوائر الأمم المتحدة بنيويورك بقصد تحريك الجهود الدبلوماسية فى اتجاه الحل السلمى، وحرص مصر على إعادة إحياء المبادرات السياسية، وهذا ما كان مستشار الأمن القومى

المصرى «حافظ إسماعيل» قد ناقشه مع كيسنجر خلال الاجتماع السرى الذى عقد بينهما بمزرعة دونالد كندال رئيس مجلس إدارة شركة بيبسى كولا فى كونيكتيكت.

ويبدو أن هذا الاجتماع ترك إنطباعًا لدى كيسنجر بأن مصر لم تجد مخرجًا من الطريق المسدود الذى وجدت نفسها فيه وهى تعيش حالة اللاسلم واللا حرب.

وفى قطر بحث الرئيس «السادات» مجالات التعاون المشترك بصورة تسمح بتسرب معلومات عن تفاقم الأزمة المالية فى مصر وعدم قدرتها على الحصول على سلاح وقطع غيار نتيجة نقص احتياطيات العملة الصعبة وتوتر العلاقات المصرية السوفيتية.

واختتم السادات جولته بالاجتماع مع الرئيس «حافظ الأسد» فى دمشق، وتم تسريب معلومات وتحليلات إلى صحف عربية خليجية ولبنانية خول طلب السادات وساطة الأسد فى تحسين العلاقات المصرية السوفيتية، وهو ما نشرته بالفعل هذه الصحف دون أن يعى أحد أن عجلة الحرب مستمرة فى الدوران على الجبهتين، وأن المجلس الأعلى للقوات (المصرية ـ السورية) يضع فى الإسكندرية اللمسات النهائية للخطة الهجومية.

وعندما انتهت اجتماعات الإسكندرية السرية يوم الإثنين ٢٧ أغسطس ١٩٧٣ عاد اللواء «مصطفى طلاس» وزير الدفاع السورى إلى دمشق ليجتمع بالرئيس «حافظ الأسد» ويطلعه على تفاصيل ما تم الاتفاق عليه فى الإسكندرية فى وجود الرئيس «السادات»، واستبعد الرئيسان كل التوقيتات التى تجعل

يوم (ى) أحد أيام شهر سبتمبر واتفقا على أن يبدأ الهجوم بين يومى (٥ و١٠) أكتوبر مع ترجيح اليوم السادس من أكتوبر أو قبله بيوم واحد وتخفيض فترة العد التنازلى من (٢٠ يومًا إلى ١٥ يومًا) فقط باعتبارها كافية لكل خطوات العمليات قبل ساعة الصفر، وتم الاتفاق على ذلك. وقدم الرئيس حافظ الأسد تفويضًا كاملاً للرئيس السادات باعتباره القائد الأعلى للقيادة الموحدة للدولتين ـ مصر وسوريا ـ ليقوم بتحديد التوقيتات وإطلاق شرارة الهجوم، وبذلك أصبح اليوم (ى) هو السادس من أكتوبر بصفة نهائية وأن يبدأ العد التنازلى قبله بـ ١٥ يومًا أى يكون (ى ـ ١٥) هو الجمعة ٢١ سبتمبر ١٩٧٣ وأن تكون ساعة الصفر هى الثانية بعد الظهر من اليوم (ى) وتبدأ بضربة جوية مركزة يقوم بها الطيران المصرى.

العدو يجهل كل شىء عن الضربة الجوية

ظهر يوم الإثنين أول أكتوبر ١٩٧٣ هبطت طائرة إسرائيلية فى مطار فيينا وخرج منها الوزير الإسرائيلى «يزرائيل جاليلى» يحمل تقريرا عاجلا إلى رئيسة الوزراء «جولدا مائير» حول الموقف العسكرى على الجبهة السورية، وكانت وقتها فى زيارة مهمة للنمسا، وقابلها الوزير جاليلى على الفور وقال لها : إنه اجتمع مع موشى ديان وبحث معه ضرورة مناقشة الموقف فى الجولان معها دون أن ينتظرا عودتها إلى إسرائيل رغم أنه من المتوقع عودتها خلال ٤٨ ساعة.

كان الهدف من هذا الاجتماع العاجل والتقرير الذى يحمله الوزير جاليلى هو إقناع رئيسة الوزراء بمناقشة فكرة استدعاء الاحتياط، وكانت هى فى قرارة نفسها تعارض الفكرة من أساسها دون أن ترفض المناقشة، فقد كانت مشغولة بأمور سياسية كثيرة وعلى رأسها توقف النمسا عن استقبال المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتى وترحيلهم إلى إسرائيل، بعد أن أصدر المستشار النمساوى الدكتور «برونو كريسكى» قرارا بإغلاق مركز استقبال المهاجرين اليهود القادمين بالقطار من الاتحاد السوفيتى

والمقام فى قلعة «شنو» قرب فيينا والتى ينتقل منها المهاجرون اليهود بالأتوبيسات إلى المطار ليستقلوا طائرات شركة «العال» إلى إسرائيل.

ويرجع قرار «كريسكى» بوقف استقبال المهاجرين السوفييت إلى هجوم فدائى شنته منظمة فلسطينية على القطار النمساوى الذى ينقل المهاجرين اليهود مما دفع مستشار النمسا إلى إغلاق معسكر «شنو» ووقف استقبال يهود الاتحاد السوفيتى لنقلهم إلى إسرائيل.

وجاء توقيت هذا القرار فى فترة تستعد فيها جولدا مائير وحزبها لخوض معركة انتخابية صعبة من المقرر إجراؤها فى إسرائيل يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ وكان الرأى العام فى إسرائيل منشغلا منذ بداية شهر أكتوبر بالحملات الانتخابية والدعايات الحزبية، وفشل رئيسة الوزراء فى دفع النمسا إلى التراجع عن قرارها سيكون له تأثيره على موقفها فى الانتخابات.

ورغم أن الوزير الإسرائيلى لجأ إلى المبالغة فى تصوير الموقف ـ ليبرر سفره إلى فيينا وعرض التقرير على رئيسة الوزراء ـ فإن «جولدا مائير» لم تتحمس لمناقشة التقرير معه، وقالت: إنها ستفعل ذلك فور وصولها فى الغد إلى تل أبيب يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر، لكن الاجتماع انعقد صباح الأربعاء ٣ أكتوبر دون أن يخطر على بال أحد من المجتمعين أن هذا هو اليوم (ى ـ ٣) أى قبل الحرب بحوالى ٧٠ ساعة.

لكن مائير وجدت عند هبوط طائرتها فى مطار بن جوريون قادمة من فيينا تقريرًا يتضمن تفاصيل المعلومات التى سبق إبلاغها بها خلال زيارتها للنمسا بواسطة الوزير «يزرائيل جاليلى».

وحضر اجتماع الأربعاء ٣ أكتوبر وزير الدفاع «موشى ديان» والجنرال «ديفيد إليعازر» رئيس أركان القوات الإسرائيلية الشهير بلقب «دادو» ويزرائيل جاليلى وزير الدولة ومستشار رئيسة الوزراء والجنرال «إلى زائيرا» مدير المخابرات الحربية (لوكادرا) ولم تستطع رئيسة الوزراء تجاهل الحديث عن رحلتها الفاشلة إلى النمسا وقالت: إن الهجوم الذى شنه الفلسطينيون على القطار النمساوى الذى ينقل المهاجرين اليهود دفع المستشار «كرايسكى» إلى إغلاق معسكر «شنو» ووقف استقبال يهود الاتحاد السوفيتى ونقلهم إلى إسرائيل، ولم تفلح الضغوط الأمريكية والإسرائيلية فى دفعه إلى التراجع عن هذا القرار.

وتدخل «دادو» وهو رئيس الأركان ديفيد إليعازر ليفرض على المجتمعين العودة إلى الموضوع الرئيسى فى جدول أعمال هذا الاجتماع، وقال: إن الموقف على الجبهتين المصرية والسورية لا يمثل خطورة ومن المستبعد وقوع هجوم مصرى سورى مشترك، وإن قيام السوريين بحشد قوات إضافية على الجبهة قد بدأ منذ المعركة الجوية التى جرت فى سماء سوريا يوم الخميس ١٣ سبتمبر١٩٧٣ وأسفرت عن سقوط ١٢ طائرة سورية طراز «ميج» فى حين فقدت إسرائيل طائرة واحدة من طراز «ميراج»

الفرنسية الصنع، لكنهم لن يتمكنوا من شن هجوم منفرد. أما الجبهة المصرية فتشهد حلقة من حلقات تحركاتها المستمرة طوال العام وهى تقوم بمناوراتها السنوية التى تشمل نقل قوات مختلفة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق.. وبالعكس، وأنهى رئيس الأركان الإسرائيلى كلامه باستبعاد فكرة استدعاء قوات الاحتياط.

وتحدثت جولدا مائير عن تجاربها السابقة مع المصريين، قالت: إنها لا تريد أن تكرر تجربة شهر مايو الماضى عندما سجل الاستطلاع الإسرائيلى تحركات مصرية واسعة، وتم رصد العديد من معدات العبور والكبارى المحمولة وهى تنقل من العمق إلى الجبهة المصرية، بالإضافة إلى معلومات وثيقة عن تحرك معدات العبور على الطريق القريب من مطار القاهرة فى اتجاه السويس والتى شاهدها أحد الملحقين العسكريين فى القاهرة وأبلغ بها إسرائيل، ويومها قالت أجهزة المخابرات: إن هذا لا يعنى شيئا وأن الحرب لن تندلع وأن المصريين غير قادرين على عبور القناة لا الآن ولا مستقبلاً. ورغم ذلك فقد قررنا يومها أن نأخذ الأمر بجدية، وانتقلت بنفسى مع «حاييم بارليف» وزير الصناعة إلى المركز الرئيسى للمخابرات العسكرية لنناقش تفاصيل الموقف مع القادة ونستعد للتعبئة، ولكن شيئًا لم يحدث، وما نراه الآن على الجبهة المصرية أقل مما تم رصده فى مايو الماضى، وأنهت مائير حديثها بطلب مواصلة مناقشة الأمر فى الاجتماع المعتاد لمجلس الوزراء الإسرائيلى والمقرر بعد ثلاثة أيام ـ أى يوم الأحد ٧ أكتوبر

ـ عقب إجازة عيد كيبور وقالت: إنه يمكن يومها بحث الموقف بكل أبعاده وتطوراته اللاحقة.

وبينما كان المجتمعون يغادرون مكتب رئيسة وزراء إسرائيل كانت أحداث اليوم (ى ـ ٣) تتلاحق داخل مراكز القيادة والسيطرة على الجبهة المصرية مع اتمام الحشد على محاور الجيشين الميدانيين الثانى والثالث.

واستكملت وحدات المهندسين استعداداتها لفتح (٧٠) ثغرة فى الساتر الترابى بحجم (١٥٠٠) متر مكعب لكل ثغرة وإنشاء (١٠) كبارى ثقيلة لعبور الدبابات والمدفعية الثقيلة و(٥) كبارى خفيفة تماثل تمامًا فى شكلها الكبارى الثقيلة ولكن الهدف منها جذب نيران العدو وخداعه وصرف انتباهه عن مناطق العبور الرئيسية بالإضافة إلى (١٠) كبارى اقتحام لعبور المشاة صنعتها إدارة المهمات المصرية، كما تم تجهيز (٧٢٠) قاربًا مطاطيًا للمشاة مع (٣٥) معدية عبور، وأصبح من المتوقع الانتهاء من فتح الثغرات وتشغيل المعديات الساعة (س + ٥) وقد تتأخر فى بعض المواقع بفعل نيران العدو لتصل إلى (س + ٧) أى الساعة التاسعة مساء السبت ٦ أكتوبر.

ورغم المعلومات التى تجمعت لدى إسرائيل عن الحشد السورى والتحركات المصرية، فإنها لم تكن تعرف شيئا عن استعدادات الطيران المصرى الذى سيشن هجومه الجوى على المواقع المحددة للضربة الجوية، كما أنها لم تتلق معلومات عن وصول الفريق «أحمد إسماعيل» وزير الحربية المصرى واللواء

«بهى الدين نوفل» رئيس أركان القيادة المصرية السورية الاتحادية إلى دمشق للاجتماع مع وزير الدفاع السورى اللواء «مصطفى طلاس».

وسر هذا الاجتماع يرجع إلى رغبة القيادة السورية تأخير اليوم (ى) لمدة (٤٨) ساعة لاستكمال الحشد وتهيئة الجبهة الداخلية للحرب، والانتهاء من تفريغ صهاريج البترول فى مصفاة التكرير بمدينة حمص، لكن المناقشة أسفرت عن بقاء اليوم (ى) - هو السبت السادس من أكتوبر باعتباره أنسب الأيام لتحقيق المفاجأة واستغلال إجازة يوم الغفران (عيد كيبور) عند اليهود، بالإضافة إلى أن الحرب كانت قد بدأت فعلاً بالنسبة لبعض الوحدات المصرية ومنها الغواصات والقطع البحرية التى غادرت قواعدها مع فرض الصمت اللاسلكى عليها واستحالة الاتصال بها.

وعاد وزير الحربية المصرى إلى القاهرة ليجد مفاجأة فى انتظاره، لقد تبين أن شركة «مصر للطيران» قامت بإلغاء رحلاتها الجوية وبدأت فى تنفيذ إخلاء طائراتها من مطار القاهرة، كما أصدرت تعليمات لطائراتها فى الخارج بالمبيت فى المطارات الأجنبية بعد أن استشعر وزير الطيران المدنى وجود استعدادات للعبور وتوقع نشوب الحرب مع آخر ضوء وقيام إسرائيل بضرب المطارات المصرية مع أول ضوء، واستصوب حماية طائراته من التدمير، وفى اتصال عاجل مع وزير الطيران تم تدارك الموقف وإلغاء هذه التعليمات وعادت حركة الطائرات إلى حالتها

الطبيعية بعد خمس ساعات دون أن تتنبه إسرائيل إلى الأمر الذى كان يبدو وكأنه مجرد ارتباك فى جداول الطيران.

غير أن هناك أحداثا أخرى وقعت جعلت الأجهزة الإسرائيلية تستشعر بجدية وجود خطر حقيقى، لقد تلقت مصر طلبًا عاجلاً من السفير السوفيتى فى القاهرة بسحب المستشارين المدنيين وأسرهم وإعادتهم إلى بلادهم، كما تلقت سوريا طلبا مماثلا من «محيى الدينوف» السفير السوفيتى فى دمشق، ولم يكن من الممكن رفض مثل هذا الطلب رغم أنه قوبل باستياء بالغ، وفى اليوم التالى وصلت بالفعل ست طائرات ركاب من شركة «إيروفلوت» السوفيتية إلى مصر لتنقل المستشارين وأسرهم إلى بلادهم، كما وصلت خمس طائرات من نفس الشركة إلى سوريا.. وعرف العدو الإسرائيلى بذلك، ونتيجة لهذا استطاع أن يكسر حلقات الخداع مستشعرًا الخطر ـ لأول مرة ـ بصورة جدية..

ومع هذه المرحلة بدأ العدو يتابع بقلق ما يجرى على الجبهة المصرية وبدأت آثار الخداع تزول تدريجيًا.. لكنه لم يتوقع ساعة الحرب وبقيت الساعة (س) لغزًا بالنسبة له.

كانت رئيسة الوزراء جولدا مائير تستعد لمغادرة مكتبها بعد ظهر الجمعة ٥ أكتوبر بعد أن قررت قضاء إجازة العيد بمنزلها فى «برامات أفيف» لتعود إلى القدس صباح الأحد لترأس اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى، لكنها تلقت تقريرا عاجلاً جاء فيه أن طائرات ركاب سوفيتية وصلت إلى دمشق وأنها تقف فى انتظار عائلات الخبراء السوفييت فى سوريا لنقلهم إلى موسكو، وأن

أفراد العائلات السوفيتية قاموا بحزم أمتعتهم على عجل استعدادًا للرحيل.

وأجرت جولدا مائير ثلاثة اتصالات تليفونية بوزير دفاعها موشى ديان وبرئيس الأركان ديفيد إليعازر - الذى تلقبه باسم «دادو» - وبمدير الاستخبارات «إلى زئيرا»، وكان سؤالها إلى كل منهم يدور حول مدلول هذا التقرير، لكن أحدا لم يجزم بأن هجومًا سوريًا يمكن أن يقع على الفور وأن ترحيل أسر الخبراء السوفييت يمكن أن يسبق أية عمليات عسكرية بأيام أو بأسابيع، واستبعد إليعازر قيام سوريا بعمل عسكرى منفرد وأكد أيضًا أن ما يجرى على الجبهة المصرية هو تكرار لما سبق وما تكرر على مدى شهور طويلة كان آخرها شهر مايو الماضى.

ورغم ذلك اتفقوا جميعًا على عقد اجتماع فى المساء وتأجيل برامجهم السابقة المعدة ليوم كيبور، وقررت رئيسة الوزراء أن يكون الاجتماع موسعًا وأن يحضره كل الوزراء، واكتمل الاجتماع فى السابعة والنصف مساءً بمكتب رئيسة الوزراء فى تل أبيب، وشهده أعضاء الوزارة الإسرائيلية ومعهم الجنرال إليعازر «رئيس الأركان» والجنرال زائيرا «مدير الاستخبارات»، وتحدثت إليهم رئيسة الوزراء معبرة عن شعورها بالقلق بسبب ما يتردد فى أجهزة الإعلام والصحف العربية حول رفض إسرائيل للسلام الذى يتطلع إليه العرب، وإظهارها فى صورة الذى يستعد للحرب من جديد. أما المصدر الثانى للقلق فيرجع إلى المعلومات المؤكدة عن خروج أسر الخبراء السوفييت من سوريا على وجه

الاستعجال، وتولى التعقيب على هذا الكلام «حاييم بارليف» وزير الصناعة والخبير العسكرى المتخصص فى شئون الدفاع وصاحب فكرة الخط الدفاعى الحصين شرق القناة المعروف باسمه قائلا: «إن الأمر لن يستوجب توجيه ضربة وقائية ولا استدعاء الاحتياط الآن، لكن ذلك لا يمنع من إلغاء الإجازات ورفع حالة الاستعداد خاصة فى أجهزة الدفاع الجوى مع بقاء الاتصال المستمر قائمًا بين رئيسة الوزراء ووزير الدفاع «موشى ديان»، واقترح الوزير «جاليلى» الاتصال بواشنطن قبل بدء إجازة نهاية الأسبوع فى الولايات المتحدة غدًا السبت.

وجاءت الإجراءات الوقائية هذه المرة مستشعرة الخطر من القوات الجوية المصرية عندما طلب بارليف رفع حالة الاستعداد فى أجهزة الدفاع الجوى حيث لا توجد معلومات عن موقف الطيران المصرى ومدى استعداده لتوجيه ضربة جوية للأهداف الإسرائيلية، وكان هذا هو ما انتهى إليه اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى الذى قرر إرسال بلاغات تحذير إلى وحدات الدفاع الجوى ورفع حالة الاستعداد وإلغاء الإجازات دون أى تفكير فى استدعاء قوات الاحتياط.

ولم يعد أمام إسرائيل فرصة لتدارك الموقف بعد أن بدأت إجازة عيد كيبور وتوقفت الإذاعات عن البث وتوقفت معها كل وسائل استدعاء الاحتياط بالطرق العلنية، وساد الجمود كل جوانب الحياة فى إسرائيل، لتبقى الاتصالات محصورة بين رئيسة الوزراء ووزير الدفاع طبقًا لما استقر عليه الرأى فى

مجلس الوزراء ليلة العيد، واعتذرت رئيسة الوزراء عن حضور عشاء ليلة العيد الذى أعده ابنها «ميناحيم» وابنتها «وايا» لأصدقائهما وهو العشاء الذى يسبق صيام يوم الغفران - كيبور - واتجهت مباشرة إلى مخدعها فى محاولة للتغلب على الأرق.

وقبل الرابعة فجرا بدقيقة أو دقيقتين دق جرس التليفون الملاصق لسرير موشى ديان «وزير الدفاع» وقال له صاحب الاتصال بكلمات قاطعة واضحة: إن مصر وسوريا ستدخلان الحرب مع آخر ضوء وأن هذا الخبر يؤكده مصدر رفيع المستوى طلب أن يبلغه بنفسه لرئيسة الوزراء وأن ذلك تم بالفعل.

وقفز وزير دفاع إسرائيل من سريره، ليرتدى زيه العسكرى بسرعة ويتجه إلى مكتبه فى وزارة الدفاع، وقبل أن يغادر بيته طلب رئيس الأركان الجنرال ديفيد إليعازر ليلحق به فى وزارة الدفاع.

وكان «أليور» سكرتير رئيس الوزراء العسكرى قد أبلغه بموعد الاجتماع مع مائير فى السابعة صباحا، وفى مكتب ديان اقتصر الاجتماع عليه وعلى رئيس الأركان «إليعازر» وتطرق إلى أربع نقاط:

١ - استدعاء الاحتياط وتعزيز الجبهات.

٢ - توجيه ضربات جوية فى هجوم وقائى.

٣ - إجلاء النساء والأطفال من المستعمرات الحدودية فى الجولان.

٤ ـ توجيه إنذار إلى مصر وسوريا لدفعهما إلى التراجع والظهور أمام العالم بأن مسئولية الحرب لا تقع على إسرائيل.

وطلب رئيس الأركان موافقة رئيسة الوزراء على استدعاء الاحتياط وتوجيه هجوم وقائى على الجبهتين، ولم يكن هناك اعتراض على استدعاء الاحتياط لكن الضربة الوقائية كانت موضع البحث فى الاجتماع التالى الذى تم عقده بعد ساعة واحدة فى بيت جولدا مائير فى الثامنة صباحًا، وتحدثت مائير عن المعلومات التى أبلغها «الصديق» قائلة: إنها معلومات دقيقة لا تستند إلى تحركات عسكرية معينة، ولكنها تستند إلى معلومات عن القرار العربى بدخول الحرب، وأن هذه المعلومات وصلت إلى إسرائيل من مصدرين مختلفين أحدهما عربى موجود الآن فى سويسرا، والمصدر الآخر هو مسئول كبير أرسل هذه المعلومات من عاصمة عربية، لكن ديان قال: إن مثل هذه المعلومات سبق أن جاءت من قبل، وبالذات فى شهر مايو السابق وتم استدعاء الاحتياط بكل ما يترتب عليه من تبعات وتكاليف باهظة دون جدوى، وربما تعمد أحد تسريب هذه المعلومات بعد أن وجد رد الفعل لدى إسرائيل لا يتناسب مع التحركات الجارية فى سوريا ووجود معدات عبور تصاحب كل الوحدات المصرية المشاركة الآن فى المناورات التدريبية.

ورغم ذلك لم يتردد المجتمعون فى أخذ الأمر بكل جدية واتفقوا على حتمية استدعاء الاحتياط وفتح قنوات الاتصال مع أمريكا، وإجلاء النساء والأطفال من المستعمرات الإسرائيلية على الحدود السورية.

أما عن توجيه ضربة وقائية فقد تم الاتفاق على تأجيلها مع الإعداد لها بحيث تتم على الجبهة السورية فقط وتوجه إلى قواعدها الجوية الداخلية ونظام دفاعها الجوى الصاروخى وليس على منطقة الجبهة، مع تجنب الدفع بالطائرات الإسرائيلية نحو الجبهة المصرية؛ تجنبا للخطر الذى تمثله قوات الدفاع الجوى على الجبهة المصرية.

وصدرت الأوامر باستدعاء قوات الاحتياط بالطرق التقليدية وليس بالوسائل العلنية بسبب توقف الإذاعات والتليفزيون خاصة أنه لن يجرى تشغيلهما يوم العيد؛ لأن أحدا لن يستمع إليهما؛ لأن الناس فى إسرائيل تعرف أنهما لا يعملان فى يوم كيبور.

وقدر رئيس الأركان القوات التى سيتم انضمامها إلى القوات العاملة بين (١٠٠) ألف أو (١٢٠) ألف مقاتل يمكن حشدهم بعد ساعات من بدء الهجوم العربى المقرر موعده قبل غروب شمس ٦ أكتوبر، وقال: إن الطيران الإسرائيلى يستطيع أن يبدأ بضربة مباشرة فى المساء حتى لو تراجع العرب عن هجومهم، لكن مائير لم توافق على الضربة الجوية ووافقت على الإعداد لها حتى تتكشف الأمور بوضوح أكثر.

وطلبت وزير خارجيتها «أبا ايبان» فى نيويورك حيث كان يحضر اجتماعات الأمم المتحدة ويقيم فى فندق «والدورف استوريا» الذى سارع بالاتصال بوزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر، كما استدعت سفير إسرائيل فى واشنطن - سمحا دنيتز - الذى كان يقضى العيد فى إسرائيل وطلبت منه السفر إلى

واشنطن على الفور. وطلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب - كينيث كيتنج - ليجتمع معها فى أسرع وقت، وقالت مائير للسفير الأمريكى: إن الهجوم سيكون فى المساء من الجبهتين المصرية والسورية وهذا ما تؤكده معلومات المخابرات وتحليل المعلومات الخاصة بالتحركات السورية والمصرية. ولذلك فإن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم فقد يتراجع السادات - كما فعل من قبل وقد تتدخل واشنطن ومعها السوفييت، وطلبت من السفير الأمريكى إبلاغ ذلك إلى وزير خارجيته هنرى كيسنجر وإلى الرئيس الأمريكى الذى يستطيع أن ينقل ذلك إلى السوفييت عبر خط التليفون الساخن مع موسكو.

وعندما توجه السفير الأمريكى إلى مكتبه للاتصال بواشنطن كانت الساعة - بتوقيت إسرائيل - تقترب من الثانية عشرة ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكان السؤال الذى يتكرر فى مصر وبصورة خاصة داخل الموقع الذى يسيطر على حركة الحرب فى الجبهة المصرية هو: هل عرف الإسرائيليون؟ ومتى عرفوا؟

وكان قد تم رصد طائرتى استطلاع إسرائيليتين بالقرب من قناة السويس فى الساعة التاسعة والنصف صباحًا، ولم تعبر الطائرتان إلى غرب القناة، لكن تجهيزاتهما تتيح لهما الاستطلاع والتصوير من فوق سيناء، ولا بد أن تكون إسرائيل قد تأكدت من وجود الجسور ومعدات العبور قرب شواطئ القناة، لكن الاستطلاع الإسرائيلى رصد أيضًا الجنود المصريين يلعبون الكرة على حافة القناة بينما يسبح بعضهم فى مياه القناة نفسها.

ولم تعرف إسرائيل شيئا عما كان يجرى فى غرفة عمليات القوات الجوية حيث بدأت فى الساعة التاسعة والنصف المراحل التنفيذية للقيام بالضربة الجوية بعد أن استدعى اللواء «محمد حسنى مبارك» جميع القادة الذين سيتولون متابعة مراحل العمليات الجوية الى اجتماع عاجل فى مقر قيادته وألقى عليهم التلقين النهائى لدور كل منهم وبعده توجهوا إلى مقر عملياتهم فى انتظار ساعة الصفر وهى الثانية بعد الظهر.

وبدأت واشنطن تشارك فى متابعة الموقف ومحاولة تدارك الأحداث المتلاحقة، لكن جميع المحاولات جاءت متأخرة..

لم يكن من الصعب على العدو أن يرصد استدعاء الاحتياط فى مصر وكل أشكال التعبئة، وهو ما كان يقوم فعلاً برصده وتحليله، وقد ظلت القيادة العسكرية الإسرائيلية تتلقى معلومات كاملة عن استدعاء الاحتياط فى مصر ثم تسريحهم، وخلال الأشهر العشرة التى سبقت الحرب رصدت القيادة الإسرائيلية (٢٢) استدعاءً لقوات الاحتياط المصرية.

ووجد ذلك ردود فعل سريعة لدى العدو الذى كان يبدأ فى وضع خطة التعبئة الإسرائيلية موضع التنفيذ ويشرع فى تنفيذ الحشد ليسفر ذلك فى النهاية عن لا شىء.

ويصف وزير الدفاع الإسرائيلى - موشى ديان - هذا السيناريو بأنه «اللعبة المصرية المفضلة» ويقول: «إن لعبة استدعاء الاحتياط أصبحت اللعبة المفضلة لدى المصريين لأنهم يعرفون أن القوات الإسرائيلية الضارية تعتمد بصورة أساسية على الاحتياط وأن

تعبئة قوات الاحتياط فى إسرائيل تكلف الميزانية ملايين الدولارات فى كل مرة، وتؤدى إلى شبه شلل كامل فى الحياة المدنية حتى تكاد الشوارع ومواقع العمل تخلو من الناس ومعهم معظم سيارات النقل العاملة فى القطاعات المدنية».

ويؤكد هذا المعنى نفسه الجنرال «زائيرا» ـ مدير إدارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذى تولى هذا المنصب بعد الجنرال «ياريف» ـ ويعبر الجنرال «زائيرا» عن رفضه لاستدعاء أى قوات احتياط إسرائيلية كرد فعل للتعبئة المصرية.

وحتى تكتمل صورة ما كان يجرى فى إسرائيل فى ذلك الوقت كان من الضرورى أن نعيد نشر ما سبق نقله عن الوثائق الإسرائيلية خاصة تقرير التقصير الذى أعدته لجنة «أجرانات» عن سوء تصرف القيادة الإسرائيلية قبل يوم السادس من أكتوبر وخلال الساعات الأولى للحرب، وكذلك مذكرات «جولدا مائير» رئيسة مجلس الوزراء فى تلك الفترة والتى نشرت مذكراتها بعنوان «قصة حياتى» وتحدثت باستفاضة عن حرب عيد الغفران، وكذلك مذكرات وزير الدفاع «موشى ديان» الذى اعترف بكثير من الأخطاء، لكنه لم يتجنب الإشادة بما قامت به القوات المصرية عندما عبرت قناة السويس واستولت على مواقع خط بارليف.

إن الإسرائيليين لم يأخذوا ما يجرى فى مصر مأخذ الجد وتميزت ردود أفعالهم بالتردد حتى أنهم لم يتحركوا أمام الاستدعاء رقم (٢٠) لقوات الاحتياط فى مصر والذى تم قبل

بدء مناورات الخريف، وتكرر ذلك أكثر من مرة خاصة مع الاستدعاء رقم (٢٢) الذى سبق المشروع التدريبى المصرى وأعقبه بعد ذلك الاستدعاء رقم (٢٣) لقوات الاحتياط المصرية، والذى كان يبدو بصورة أقل جدية وبأنه مجرد استدعاء للتدريب المعتاد وضمن «اللعبة المصرية المفضلة» حسب تعبير الوزير الإسرائيلى.

وكان هذا الاستدعاء المصرى يحاط بالكثير من إجراءات التعمية والخداع مثل فتح باب سفر العسكريين للخارج، وتنظيم مسابقات ثقافية ودينية لأفراد القوات المسلحة ورصد جوائز مالية كبيرة لحفظ القرآن بين الجنود، وإعداد رحلات متتالية لأداء العمرة للضباط والجنود تم تحديد مواعيدها طوال شهر رمضان ١٣٩٣هـ دون أن يعرف أحد أن العد التنازلى للحرب سيبدأ قبل بداية رمضان وأن اقتحام قناة السويس سيتم يوم العاشر من رمضان، وفى هذا المناخ العام تم الاستدعاء رقم (٢٣) وكان هو استدعاء حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وقد خدع العدو نفسه عندما توهم أن الطيران المصرى غير قادر على القيام بعمليات هجومية، وأن الطيران الإسرائيلى سيبقى متفوقا من حيث عدد الطائرات وخبرة الطيارين، وربما كان العدو محقا إلى حد ما بالنسبة لنوعيات الطائرات الغربية والمعدات الإلكترونية التى كان يتزود بها من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، لكنه أبدا لم يتفهم قدرة الطيار المصرى على حسن استخدام ما يتوفر له، كما لم يقدر قيمة التدريب الراقى الذى تلقاه الطيارون المصريون.

قلنا إن «جولدا مائير» اتصلت بوزير خارجيتها «أبا ايبان» فى نيويورك حيث كان يحضر اجتماعات الأمم المتحدة ويقيم فى فندق «والدورف استوريا» وطلبت منه إبلاغ رسالة عاجلة إلى الخارجية الأمريكية بشأن الهجوم المتوقع على إسرائيل، وكانت الساعة فى نيويورك تقترب من السادسة صباحا، فى إسرائيل الواحدة بعد الظهر، وهكذا لعب فرق التوقيت دوره ضد إسرائيل، وهذا الدور الذى لعبته فروق التوقيت تكرر مع هنرى كيسنجر الذى كان يقيم هو أيضا فى مبنى الأبراج بفندق «والدورف استوريا» الذى يضم عادة رؤساء الوفود فى اجتماعات الأمم المتحدة، وكانت الساعة تقترب من الواحدة بعد الظهر فى إسرائيل وهى فى نيويورك السادسة صباحا، وكان كيسنجر لا يزال نائما عندما اقتحم جناحه مساعده لشئون الشرق الأوسط «جوزيف سيسكو» وأبلغه أن السفير الأمريكى فى إسرائيل «كينيث كيتنج» بعث برسالة من «جولدا مائير» تقول فيها: «إن هناك هجوما مصريا سوريا منسقا سيتم شنه على إسرائيل، وأن معلومات مؤكدة حددت موعد الهجوم مع آخر ضوء أى الساعة السادسة من مساء اليوم بتوقيت إسرائيل».

وسارع كيسنجر بالاتصال بمكتبه للاطلاع على أية تقارير جديدة من مصر وسوريا ثم سارع بالاتصال بالسفير السوفيتى لدى الولايات المتحدة ـ أناتولى دوبرينين ـ وأبلغه بما تلقاه من معلومات، وطلب منه سرعة الاتصال بموسكو وإبلاغها ضرورة الاتصال بالقاهرة ودمشق لوقف تدهور الموقف.

وبعدها قام كيسنجر بالاتصال بوزير الخارجية المصرى «محمد حسن الزيات» الذى كان موجودا أيضا فى نيويورك ممثلا لمصر فى اجتماعات الأمم المتحدة، وأبلغه برسالة «جولدا مائير» وطالبه بسرعة الاتصال بالقاهرة والتأكيد على رغبة الولايات المتحدة فى القيام بدور دبلوماسى جديد لحل مشكلة الشرق الأوسط فور إجراء الانتخابات الإسرائيلية نهاية هذا الشهر.

وكانت مكالمة هنرى كيسنجر مع وزير الخارجية المصرى وحديثه عن الوعد بتحريك الأزمة تتم بين الساعة السابعة والسابعة وخمس دقائق صباحا بتوقيت نيويورك، وهى فى مصر الثانية وخمس دقائق بعد الظهر.

وكانت الطائرات المصرية فى تلك اللحظة تعبر قناة السويس على ارتفاعات منخفضة جدا فى طريقها لتدمير الأهداف المعادية المحددة لها فى الخطة الهجومية.

وتمت الضربة الجوية في ٢٠ دقيقة

لم يستغرق الاجتماع الذى عقده اللواء «حسنى مبارك» مع القادة الذين سيتولون متابعة مراحل العمليات الجوية أكثر من ساعة واحدة انطلقوا بعدها إلى مقار عملياتهم فى انتظار ساعة الصفر.

وجاءت التمامات إلى غرفة عمليات القوات الجوية تبلغ عن تجهيز الطائرات المقاتلة «الميج» والمقاتلات القاذفة «سخوى ٧» وتزويد كل طائرة بكامل تسليحها من صواريخ أو قنابل طبقا للهدف الذى ستقوم كل طائرة بمهاجمته، ولم يتم تزويد الطائرات بخزانات وقود إضافية؛ لأن ذلك يكون على حساب التسليح، وكانت خطة القوات الجوية هى انطلاق الطائرات بكامل تسليحها، والاعتماد على إنهاء المهمة بأقصى سرعة ممكنة واستخدام كل تسليحها ضد الأهداف المعادية، لأنه غير مسموح بعودة الطائرة إلى قاعدتها وهى محملة بالذخيرة، فضلا عن أن سرعة العودة إلى القاعدة تستوجب تقليل حمولة الطائرة إلى أقل درجة.

وكان التخطيط للضربة الجوية يقضى بأن تعبر الطائرات خط المواجهة فى وقت واحد، وأن تصل كل طائرة إلى هدفها فى

الوقت نفسه تقريبا، حتى تتم الضربة الجوية لكل الأهداف المحددة فى وقت واحد، مما يربك العدو ويفقده القدرة على التفكير ويشله عن رد الفعل السريع، فضلا عن استكمال عناصر المفاجأة، وكان ذلك يتطلب جدولا محددا لانطلاق الأسراب وحسابات معقدة ودقيقة خاصة مع هذا العدد الكبير من الطائرات، وهو (٢٢٠) طائرة تخرج من قواعد عديدة ومتفرقة لتعبر خط المواجهة فى وقت واحد وتقوم بإصابة أهدافها فى أوقات شبه موحدة تقاس الفروق فيها بالثوانى وليس بالدقائق.

وكان المأمول أن يتم كل ذلك وأن تأخذ الطائرات طريق العودة إلى قواعدها فى زمن يقدر ما بين عشرين وإحدى وعشرين دقيقة، ولا يزيد عن ذلك سوى ثوان معدودة.

وكانت هناك صعوبة من نوع خاص تواجه غرفة عمليات القوات الجوية بسبب التزام الطائرات بأوامر الطيران على ارتفاعات منخفضة حتى لا يتمكن العدو من رصدها وحتى تتحقق المفاجأة الكاملة، وكان مصدر الصعوبة فى غرفة العمليات يكمن فى عدم قدرة أجهزة الرادار المصرية على متابعة سير الطائرات فى الجو والاعتماد على الحسابات الدقيقة الموضوعة لمسار الطائرات على اختلاف أنواعها وتباين الأهداف التى ستقوم بضربها، وهكذا كانت عملية متابعة سير الطائرات تعتمد على الحسابات وعلى مدى التزام كل طائرة بخط السير الموضوع لها وزاوية الهجوم المحددة لها طبقا للهدف المرصود.

وقد سبق تدريب الطيارين على طريقة الدخول إلى هذه الأهداف، وعلى زاوية ضرب كل هدف منها والارتفاع المحدد لزاوية الضرب بعد أن تقوم الطائرة بالارتفاع إلى المستوى المناسب وهو ما يطلق عليه الطيارون عملية «الشد» أى التحرك بسرعة من أسفل إلى أعلى.

وتحركت الأسراب إلى مداخل الممرات فى كل القواعد الجوية المنتشرة وسط الدلتا وغربها ووراء خط المواجهة استعدادا للانطلاق.

لم تكن الطائرات المشاركة فى الضربة الجوية هى نفس الطائرات التى تضمنتها حسابات الحرب من قبل عند تعديل الخطة بحيث تعتمد على ما كان يتوفر لدينا من إمكانات يومها، يمكن أن تلحق بها زيادة ودعم قبل اليوم «ى» فقد زادت بالفعل وتم تدعيمها مرتين، لقد كان عدد طائرات قواتنا الجوية يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ أكثر مما كان لدينا يوم أن قال قائد القوات الجوية فى الاجتماع الذى ضمه مع الرئيس «السادات» واللواء «محمد على فهمى» فى طائرة الرئاسة: «إن قواتنا الجوية قادرة على القيام بواجبها فى إطار المهام التى كلفت بها، وعلى هذا الأساس أقول بمنتهى الثقة إننا على أتم الاستعداد لخوض المعركة»..

لقد شهدت الفترة من يونيو ١٩٧٢ حتى مارس ١٩٧٣ دعما مؤثرا فى التسليح، واستجاب الاتحاد السوفيتى لبعض المطالب المصرية بالنسبة للطائرات وغيرها، خاصة بعد أن علم أن مصر

تتجه إلى الحصول على طائرات غربية، كان منها طائرات «الجاجوار» التى رفضت بريطانيا بيعها لنا، ومن بين الطائرات الغربية التى سعت مصر للحصول عليها سربين من ليبيا طراز «ميراج» الفرنسى، وسرب طائرات «لايتنج» من المملكة العربية السعودية.

لكن المؤكد أن قواتنا الجوية اعتمدت بصورة أساسية فى ضربتها الجوية ظهر يوم السادس من أكتوبر على الطائرات السوفيتية «الميج» و«السخوى»، وقد حصلت مصر على عدد منها قبل اليوم «ى» بوقت كاف، وتحديدا فى مارس ١٩٧٣ رغم أن الشائعات كانت تتردد عن سوء العلاقات المصرية - السوفيتية خاصة فى مجال التسليح. لقد قام الرئيس السورى حافظ الأسد برحلة سرية إلى موسكو بهدف تحسين هذه العلاقات دون أن ينعكس ذلك على ما ينشر أو يذاع، وبعد نجاح رحلة «حافظ الأسد» السرية إلى موسكو توالى سفر عدد من كبار القادة العسكريين المصريين - ومنهم وزير الحربية نفسه - وأسفر ذلك عن عقد صفقتى سلاح وقطع غيار لم يعرف عنهما العالم شيئًا، وكانت تفاصيل هذه الأسلحة سرًا، لكن الأهم أن مواعيد تسليمها كانت جميعها قبل أكتوبر ١٩٧٣ بوقت مناسب، وكان آخر الصفقات قبل الحرب صفقة أسلحة ثالثة أطلق عليها القادة اسم «صفقة مارس» والتى جاء موعد تسليمها ليسبق الحرب بفترة قصيرة، وترجع أهمية «صفقة مارس» إلى أنها كانت إضافة للتسليح الذى تعتمد عليه خطة العبور.

والسبب فى تسمية «صفقة مارس» يرجع إلى أنها تمت فى موسكو فى شهر مارس ٧٣ ووقعها هناك وزير الحربية الفريق أحمد إسماعيل وسبقتها زيارة مهمة قام بها سرًا إلى القاهرة وفد عسكرى سوفيتى برئاسة الجنرال «لاشنكوف» واستمرت من ٥ إلى ١٢ فبراير ١٩٧٣ وتم خلالها التوصل إلى اتفاق بشأن الصفقة الإضافية التى وقعها أحمد إسماعيل فى موسكو، وشملت الصفقة الإضافية سريا للاستطلاع والإعاقة الإلكترونية لم يعمل العدو حسابًا له، وكذلك سريا من طائرات «الميج ٢٣» وتبعت الصفقة تدريب الطيارين المصريين على الطائرات الجديدة فى الاتحاد السوفيتى خلال شهرى مايو ويونيو ١٩٧٣.

وأصبحت القوات الجوية المصرية تضم (٣٠٥) طائرات ترتفع إلى أكثر من (٤٠٠) طائرة إذا أضيفت إليها طائرات التدريب، لكن الطائرات التى خصصت للقيام بالضربة الجوية ظهر السبت السادس من أكتوبر كانت (٢٢٠) طائرة أى نصف ما نملكه من الطائرات.

وفى ذلك اليوم «ى» كانت هناك أحداث تاريخية تجرى فى مركز القيادة الرئيسى.

وكانت غرفة العمليات هذه هى مقر متابعة المناورات التى كانت تجرى فى مناطق الجبهة والتى شكلت مرحلة مهمة من مراحل خداع العدو وتعميته، وكانت تضم خطوط الاتصال المغلقة والمؤمنة التى ستستخدم بعد ساعة الصفر، وكذلك خطوط اتصال شبه مفتوحة تستخدم فى نقل الأوامر والتعليمات التى

تتعلق بالعمليات التدريبية وما يسمى بمناورات الخريف، وكانت جدرانها تزدحم بخرائط المناورات التى تستخدم بالفعل فى مراحل ما قبل العبور، لتستبدل بها خرائط العمليات الهجومية قبل ساعة الصفر، وهذا ما تم بالفعل فى الساعة الواحدة بعد الظهر أى الساعة (س ـ ١) لتُغلق أبواب الموقع الحديدية ويمنع تمامًا الدخول إليه أو الخروج منه.

وتم إعادة ضبط جميع الساعات لأقرب ثانية بعد أن رفعت جميع خرائط المناورات التدريبية لتحل محلها خرائط العملية الهجومية وتتوالى الإشارات إلى قيادات الجيش الثانى الميدانى والجيش الثالث الميدانى بإنجاز المهام القتالية اعتبارًا من الساعة (١٤٠٥) وهى ساعة الصفر (س) من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (ى).

وتصدر التعليمات بتنفيذ الشق الإعلامى للخطة الهجومية طبقًا للمتفق عليه، واعتبارًا من (س ـ ٣٥ ق) وهنا تقطع الإذاعة المصرية برامجها فى الساعة ١٣٣٠ (الواحدة والنصف بعد الظهر) لتذيع الخبر التالى:

«جاءنا الآن أن عناصر من القوات الإسرائيلية المسلحة هاجمت مواقعنا فى الزعفرانة، وهذا الهجوم يمثل خرقًا خطيرًا لوقف إطلاق النار، وقد تم إبلاغ مجلس الأمن الدولى بهذا العدوان».

وبعد إذاعة هذا النبأ استأنفت إذاعة القاهرة برامجها العادية لتقطعها مرة أخرى فى الساعة الثانية بعد الظهر وتذيع المارشات العسكرية، وعندما بدأت إذاعة القاهرة فى بث الموسيقى

العسكرية كانت الأوامر تصدر إلى أسراب الطائرات بالانطلاق لتوجيه الضربة الجوية المفاجئة والمؤثرة إلى الأهداف المحددة التى سبق ذكرها، وهى تحديدا:

● محطة التشويش الرئيسية فى أم خشيب وهى مزودة بأجهزة إلكترونية تقوم بالتشويش على أجهزة الطائرات وتصطنع أهدافا وهمية.

● مراكز للقيادة والسيطرة وأهمها مركز القيادة الرئيسى فى أم مرجم.

● قواعد الصواريخ المضادة للطائرات طراز «هوك» أرض جو وعددها عشرة مواقع وتقوم بضربها المقاتلات المصرية طراز «ميج» بواسطة الصواريخ المحمولة جوا.

● مطارت العدو المواجهة للجبهة، ومنها مطار المليز ومطار العريش ومطار رأس نصرانى، وكان العدو قد نقل إليها بعض الأسراب بعد أن أعلن حالة الطوارئ عقب استشعاره بخطر الحرب.

وكان الهدف من مهاجمة هذه المطارات هو منع إقلاع الطائرات منها وهو ما تم بالفعل بعد أن أصابتها قنابل المقاتلات القاذفة المصرية «سخوى ٧» والتى أحسن الطيارون المصريون استخدامها بصورة مبهرة..

وفى تلك الأثناء كانت هناك أحداث أخرى تقع وسط أمواج البحر المتوسط، وفى أقصى جنوب البحر الأحمر فقد كانت القوات البحرية المصرية تواكب فى تحركها القوات البرية حيث

بدأ فتح وحدات الأسطول المصرى من المدمرات والغواصات لتأخذ أوضاعها الأخيرة فى القطاعات المحددة لها، بما فى ذلك وحدات الأسطول التى تحركت تحت ستار الزيارة الودية للموانئ الصديقة فى الهند، وكان هذا التحرك حلقة مهمة فى سلسلة الخداع.

إن خطة الحرب تضمنت إغلاق الطريق البحرى إلى ميناء إيلات الإسرائيلى مع بداية العمليات باعتباره الطريق الرئيسى لإمداد إسرائيل بالبترول، ومن المستحيل تحقيق ذلك من منطقة شرم الشيخ والمدخل الجنوبى لخليج العقبة؛ لأنه فى يد العدو الإسرائيلى منذ عام ١٩٦٧ ويقع تحت سيطرته التامة، وكان البديل هو الإغلاق من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند مضيق باب المندب جنوب اليمن، وبدأ تنفيذ ذلك تحت ستار زيارة ودية للموانئ الهندية.

وتحركت الوحدات البحرية الموجودة فى السويس بعد أن أعلنت الهند عن زيارة مقررة لبعض قطع الأسطول المصرى، واتجهت القطع المصرية نحو الجنوب لتعبر باب المندب وتدخل المحيط الهندى.

وقبل بدء العمليات، وعندما حل اليوم (ى) دخلت قطع الأسطول المصرى إلى المضيق وأعلنت إغلاق الطريق البحرى إلى إسرائيل ومنع مرور ناقلات البترول المتجهة فى البحر الأحمر إلى إيلات لتعويض البترول الذى تستهلكه إسرائيل خلال العمليات الحربية.

وكانت قطع الأسطول المصرى تتخذ مواقعها فى البحر المتوسط وقد فرضت صمتا لاسلكيا كاملا انتظارا لساعة الصفر، واستطاعت هذه الوحدات البحرية أداء دورها الذى يتلخص فى ضرب استحكامات العدو فى بالوظة ورمانة من البحر والاشتراك فى إيهام العدو بوجود هجوم على المحور الشمالى جنوب شرق بورفؤاد لجذب اهتمامه وتشتيت محاولات القيام بالهجمات المضادة.

واستكملت عمليات التمويه وجذب نظر العدو إلى محاور هجمات وهمية بدفع لواء برمائى تم تجهيزه مع بداية عام ٧٢ لدفعه فى عمق العدو عبر البحيرات لتعطيل تقدم الاحتياطيات من خطوط العدو الخلفية فى طريقها لمواجهة قواتنا فى عمليات هجوم مضاد، ووضعت القيادة العامة هذا اللواء ضمن خطة الخداع والمفاجأة. لقد كانت خطة الهجوم تتضمن قيام المعديات بنقل الدبابات من غرب القناة إلى الضفة الشرقية طبقًا لجداول توقيتات تجعل هذه الدبابات غير مستعدة للعمل والقتال قبل س + ٥ (أى بعد ساعة الصفر بخمس ساعات) فى حين يستطيع اللواء البرمائى عبور البحيرات فى أقل من ساعة واحدة وبأعداد كبيرة من الدبابات والعربات، مما يشكل تهديدًا لقيادات العدو واحتياطياته المتحركة.

ووضعت خطة تدريب اللواء البرمائى على هذا الأساس، وعكف أفراده على التدريب لشهور طويلة، وشملت عمليات التدريب عبور البرمائيات لنقل قوات من المشاه الميكانيكية وبأسلوب عمل الوحدات الخاصة.

وفى ليلة (١٨ ـ ١٩) يوليه ٧٣ تم الاختبار النهائى لقدرات هذا اللواء فى منطقة التدريب غرب الإسكندرية وبقى فى مياه البحر لأكثر من خمس ساعات، ونجح فى الإبحار على الشاطئ والتقدم براً لتنفيذ مهمته فى صد وعرقلة القوات المعادية المتقدمة من العمق، وأسفر التدريب عن خسارة مركبتين وفقد عشرة أفراد تم العثور على سبعة منهم فى الصباح وتأكد استشهاد ثلاثة، فى حين كانت خسائره فى عملية العبور الحقيقية هى فرد واحد.

كما سبق انطلاق الطائرات عمل بالغ الأهمية يتعلق بوقف عمل خزانات السوائل الحارقة التى أعدها العدو لإطلاقها فوق سطح الماء فى قناة السويس لمنع محاولات العبور، وفى اجتماع ضم قائد القوات الخاصة، وقائد الضفادع البشرية ومدير سلاح المهندسين وأحد ضباطه، ومدير التخطيط بهيئة العمليات، تم استعراض كل التجارب والمحاولات المعدة لمواجهة إشعال العدو للحرائق فوق سطح القناة وبحثوا نتائج التجارب التى أُجريت فى أكثر من موقع ، وتم خلالها استخدام عشرات الأطنان من السوائل المشتعلة التى تمثل نوعًا من أنواع النابالم ـ أقل كثافة من مياه القناة ـ لضمان الطفو فوق السطح، وفشلت كل تجارب إطفاء الحريق وعلى ضوء نتائج هذه التجارب المتكررة تقرر أن تكون الخطة هى حرمان العدو من استخدام هذا السلاح الجهنمى مع خداعه وإيهامه بصلاحية هذا السلاح ومفاجآته بتجهيزات معطلة تُخرج سلاح الحريق من المعركة قبل بدايتها.

وعلى ضوء المعلومات المتوافرة من الاستطلاع وإدارة المخابرات شرح ضابط المهندسين تفاصيل التجهيزات التى يعتمد عليها العدو، والتى تتكون من ثلاثة أجزاء هى خزانات تحت مواقعه الحصينة يسع كل خزان منها ٢٠٠ طن من المواد المشتعلة، والجزء الثانى أنبوبة تصل بين هذه الخزانات وسطح مياه القناة، وأخيرًا معدات السيطرة التى تتولى فتح خزانات «النابالم» وإشعالها، ولو تم افساد أى جزء من تلك الأجزاء الثلاثة فإن العدو سيفشل فى خطته. واستبعد المجتمعون إمكانية تدمير الخزانات بواسطة المدفعية؛ لأنها مدفونة جيدًا فى الرمال، ومعها أنابيب نقل السائل إلى القناة المدفونة أيضًا تحت سطح الأرض، لكن فتحات هذه الأنابيب كانت ظاهرة تحت سطح الماء وكانت قواتنا تراها بوضوح من غرب القناة عندما يكون هناك «جزر» وينخفض مستوى سطح الماء فى القناة، وأصبح الحل هو سد هذه الفتحات قبل العبور خاصة أن أماكنها محددة لدينا وهناك صور لها بين أيدينا، بالإضافة إلى معلومات تفصيلية أخرى.

وتم وضع الخطة من ثلاث مراحل، المرحلة الأولى إرسال وحدات خاصة من الضفادع لعبور القناة تحت سطح الماء والقيام بإغلاق الفتحات وسدها قبل أول ضوء من اليوم (ى) وهو يوم العبور، والمرحلة الثانية هى وضع هذه الخزانات ضمن أهداف تحضيرات المدفعية على أمل النجاح فى ضربها، والمرخلة الثالثة تكون فى بداية المعركة بحيث تظل نقاط عبور القناة فوق اتجاه التيار عند كل خزان حتى إذا نجح العدو فى استخدام هذا

السلاح فإن النيران تظل متجهة بعيدًا عن الموجات الأولى للعبور، وفى جميع الأحوال يتم تأخير نزول الوحدات إلى الماء لفترات تتراوح ما بين ٢٠ و٣٠ دقيقة بعد ظهور اللهب فوق الماء وتحاشى تأثيرها حتى ينتهى أثرها.. أو تجاهلها فى حالة ضعف تأثيرها.

وقد تحقق النجاح خلال المرحلة الأولى من الخطة، واستطاعت القوات الخاصة إغلاق الفتحات وسدها.

وتلقت غرفة العمليات الرئيسية هذه المعلومات قبل ساعة الصفر، كما جرى أيضا مراجعة خطة أولويات العبور طبقًا للأسبقيات المقررة، والتأكد من وضع العلامات والأرقام الإرشادية على النقاط المقررة للعبور والتى ستتم إضاءتها بالأضواء الملونة مساء السبت بعد آخر ضوء لليوم (ى).

كانت أولويات العبور تقضى بتقسيم وحدات المشاه المكلفة بالعبور إلى مجموعتين، المجموعة الأولى: هى مجموعة المترجلين الذين يقتحمون القناة فى قوارب مطاطية ثم يتحركون على أرجلهم ويسلالم من الحبال ليصلوا إلى الضفة الشرقية، والمجموعة الثانية تضم الوحدات والأطقم ذات الأسلحة الثقيلة التى تنتظر على الضفة الغربية إلى أن يتم فتح الممرات فى السد الترابى وتشغيل المعديات والكبارى. ويتم العبور فوق المعديات والكبارى طبقًا لأهمية كل مركبة وحاجة المشاة إليها وعلى أساس ست أسبقيات أولاها الدبابات وعربات القتال وعربات اللاسلكى والهاونات الثقيلة وبعض عربات نقل الذخيرة.

أما الأسبقية التالية فتشمل وحدات المدفعية ووحدات الدفاع الجوى وعدداً آخر من عربات نقل الذخيرة، ويلى ذلك قوات الأسبقية الثالثة من العناصر الإدارية لكتائب المشاة وكتائب المدفعية المضادة للطائرات، والأسبقية الرابعة تتكون من الوحدات الإدارية على مستوى الألوية، وتأتى الوحدات الإدارية على مستوى الفرقة فى الأسبقية الخامسة.

أما الأسبقية السادسة والأخيرة فتضم العربات المخصصة لركوب أفراد المشاة الذين عبروا بالقوارب ويتم تحركها للعبور مع بداية اليوم الثالث فى الساعة (س + ٤٥) وكل منها فى التوقيت المعين لها وبالترتيب المحدد.

وهذا الحجم من القوات لم يكن ليخطر ببال القيادة الإسرائيلية وإنما ظل يشكل مفاجأة كاملة لها حتى بعد أن شعرت بما يجرى وبدأت تستعد له وتتحرك لمواجهته، وتلقت غرفة العمليات الرئيسية التمام النهائى لحمل الأفراد إلى الضفة الشرقية ونصف هذه القوارب تم تصنيعها محليًا وتم استيراد النصف الآخر من الاتحاد السوفيتى على مراحل.

وخرجت من المخازن وورش المهندسين سلالم الحبال وزلاقات الصاج لتكون فى أماكنها بين أيدى الجنود، وشملت التمامات الصاعدة من قيادة إلى أخرى والانتهاء من نقل المدافع الخفيفة المضادة للدبابات والرشاشات المتوسطة والرشاشات المضادة للطائرات وصناديق الذخيرة وسائر الأسلحة والمعدات التى ستنقل إلى الضفة الشرقية للقناة خلال الساعات الأولى للمعركة.

واتخذت الطلمبات التوربينية التى تعمل بالوقود العادى مواقعها بمعدل ثلاث طلمبات لكل ممر يتم فتحه فى الساتر الترابى شرق القناة طبقًا لخطة تحرك وحدات العبور التى تساندها وحدة مهندسين.

وظلت الوثائق العسكرية لمعركة العبور تؤكد أن أول نيران تم إطلاقها على العدو كانت من الطائرات عندما حانت الساعة واتجهت الطائرات إلى أهدافها؛ لتدمر مواقع الصواريخ المعادية، ومراكز القيادة، ومحطات الرادار، ومراكز التشويش، وبطاريات المدفعية الثقيلة.

واشتعلت جذوة الحماس لدى جميع الجنود فى سائر الوحدات وهم يشاهدون طائراتهم تمرق فوق رءوسهم حتى تكاد تلامسها فى طريقها إلى تدمير الأهداف المعادية، وفى تلك اللحظة بدأ إطلاق قذائف نحو أهدافها فى سيناء.. وسبح فى مياه القناة أفراد الصاعقة والمهندسون والضفادع متجهين إلى مخارج مواسير السوائل المشتعلة للتأكد من إغلاقها وعدم قيام العدو بإصلاح شىء منها..

وكان الارتباك لا يزال سائدا فى إسرائيل حيث القادة الإسرائيليون يستعدون لمواجهة الهجوم المتوقع فى السادسة مساءً عندما انطلقت صفارات الإنذار فى كل أنحاء إسرائيل، وتم استدعاء جميع القادة العسكريين إلى نقطة القيادة الإسرائيلية المعروفة باسم «كدم» والشهيرة باسم «الحفرة» تحت سطح الأرض فى مركز مجموعة العمليات ليتم إبلاغهم بأن الطائرات المصرية

قد نجحت فى تدمير محطات الرادار، ومراكز التشويش، وبطاريات المدفعية، ومعظم مواقع الصواريخ فى سيناء دون أن تنجح الأسلحة المضادة فى التصدى لها، وأن الطائرات المصرية فى طريق عودتها إلى قواعدها، وأن القوات المصرية تعبر قناة السويس بطول الجبهة وبدأت مواقع خط بارليف فى السقوط تحت أقدامهم.

أرقام قياسية
وأطول معركة جوية فى التاريخ

كانت معارك ضارية تجرى فوق أرض سيناء فى مواجهة الهجوم المضاد الذى يشنه العدو بدعم سريع بالأسلحة والدبابات الأمريكية عندما دعا اللواء «حسنى مبارك» إلى اجتماع سريع نبه فيه إلى وجود احتمالات قوية لقيام العدو بهجوم على قواعدنا الجوية بعدد كبير من طائراته، يحاول به الرد على ضربتنا الجوية المفاجئة ظهر يوم السادس من أكتوبر. ولم يستغرق الاجتماع سوى دقائق قليلة، لكن الهجوم المتوقع لم يتأخر كثيرا فقد سارع العدو بالتجهيز لضربة جوية يحاول بها الرد على الضربة المصرية التى دمرت له مطارات المليز وتمادا ورأس نصرانى وعشرة مواقع صواريخ أرض جو طراز «هوك» وثلاثة مواقع رادار ومراكز توجيه وإنذار ومحطتى أم خشيب وأم مرجم للإعاقة والشوشرة وثلاث مناطق شئون إدارية والنقطة القوية شرق بورفؤاد بالاشتراك مع القوات البحرية، بالإضافة إلى موقع للمدفعية بعيدة المدى.

وكنا نعرف من أين ستأتى طائرات العدو، واستعدت أسرابنا المقاتلة لمعركتها معه. لقد عرفنا أن العدو سيتجنب الدخول من

فوق قناة السويس تجنبا لحائط الصواريخ الذى أقامته قوات الدفاع الجوى، وليس أمامه سوى الدخول عبر الخليج من جنوب السويس أو من البحر شمال الدلتا، وقد يكون ذلك بمواجهة الساحل قادما من الشرق أو من شمال غرب الدلتا من أجل التعمية.

وكنا نعرف أيضًا أنه سيدفع بأعداد كبيرة من الطائرات، وأنها ستقترب من أهدافها على ارتفاعات منخفضة جدا؛ تجنبا لاكتشافها مبكرًا على شاشات الرادار. وقد تحوطت قواتنا الجوية لذلك واستعدت له، ضمن خطة الإعداد الطويلة التى سبقت أكتوبر ٧٣ وكان من بين الاستعداد لذلك إقامة نقط ملاحظة بالعين فى المناطق المتقدمة مزودة بأجهزة إبلاغ سريعة مرتبطة بشبكة الاتصالات المتكاملة مع محطات الرادار وأسلحة الدفاع الجوى، وقبل هذا كله بقواعدنا الجوية المنتشرة فى دلتا مصر.

وقبل أن يكتمل اليوم الثانى للمعركة وهو يوم السابع من أكتوبر دفع العدو بأول موجة هجوم جوى فى اتجاه قواعدنا الجوية. وكانت هذه هى أبرز هجماته الجوية وأكثرها شراسة، فقد كان لا يزال يعيش فى وهم اسمه التفوق الجوى الإسرائيلى. وقام بتنفيذ خطة خيالية؛ لإخراج قواتنا الجوية من المعركة مستهدفا عشرة مطارات مصرية،وكانت أبرز هجماته وأكثرها كثافة فى اليوم السابع من أكتوبر فى محاولة للرد على الضربة الجوية الناجحة التى قامت بها طائراتنا ظهر اليوم

السادس من أكتوبر. ومن أجل ذلك هاجم فى هذا اليوم السابع من أكتوبر سبعة مطارات من بينهم مطار القطامية الذى هاجمه ست مرات فى يوم واحد، ومهاجمة مطار المنصورة خمس مرات، ورغم ذلك ظلت مطاراتنا تعمل بكفاءة تامة طوال المعركة. وكان نجاحه محدودا للغاية وبدأت خسائره فى الطائرات تتزايد، مما دفعه إلى تقليل مجهوده الجوى ضد المطارات المصرية.

وقد عبر عن ذلك طيار أسقطت قواتنا الجوية طائرته فى أولى معاركها الجوية مع العدو ـ وهو الملازم أول طيار «آفى حاييم الكلاى» ـ الذى قال إن سلاح الطيران المصرى كان على أعلى مستوى وأنه لم يكن يتوقع أن تقوم الطائرات المصرية بمهاجمته بهذه الصورة وتلك الكفاءة العالية وأن المعركة التى سقطت فيها طائرته كانت تعكس سيطرة كاملة للطائرات المصرية، وأن هذه المعركة أسفرت عن سقوط ثلاث طائرات فانتوم، كانت طائرته واحدة منها.

ونتيجة عدم نجاح محاولات العدو فى تعطيل مطاراتنا وفشله فى فرض حالة دفاع جوى على أسرابنا المقاتلة لحماية أهدافنا، فقد تمكنت القوات الجوية المصرية من أداء مهامها الهجومية منذ صباح السابع من أكتوبر حيث قامت بمهاجمة احتياطيات العدو التعبوية طوال أيام القتال، وكانت أسراب القاذفات «سخوى» ومقاتلاتنا «ميج ١٧» و«ميج ٢١» تحقق أرقاما قياسية فى معدلات إصابة الأهداف المعادية، وهاجمت قواعد العدو

الجوية فى سدر والطور والقوات المشاركة فى الهجوم الإسرائيلى المضاد.

وضمن عمليات الاقتحام الجوى الرأسى أدت قواتنا الجوية الدور المسند إليها ضمن مهمة إبرار وحدات الصاعقة فى عمق سيناء وظلت طائرات الهليكوبتر تمد وحدات الصاعقة بالمؤن والذخائر طوال أيام القتال لتواصل عملياتها تحت أصعب وأشق الظروف وأكثرها خطرا.

وشهدت هذه الأيام بطولات صامتة على أرض قواعدنا الجوية تتجسد فى إعادة الملء وتجهيز الطائرات للطلعات المتتالية. لقد حقق الفنيون والمهندسون فى قواتنا الجوية معجزة حقيقية فى إعادة تجهيز الطائرات وتزويدها بالوقود والذخيرة لتواصل عملياتها فى الجو. وكانت سرعة إعادة الملء تمثل تحديا بالغا جعل الرجال يسجلون أرقاما تفوق الأرقام التى كانت تتحقق خلال مراحل الإعداد والتدريب، مما حقق المزيد من الكثافة التواجدية لطائراتنا فى سماء المعركة. وكانت إسرائيل قد أعلنت بعد يونيو ٦٧ أنها ضربت الرقم القياسى العالمى فى إعادة الملء ودعت خبراء ومهندسين من الولايات المتحدة ليشاهدوا بيانا عمليا عن سرعة إعادة ملء الطائرات، ثم عادت الى دعوتهم بعد ذلك ليشاهدوا إعادة ملء الطائرات الأمريكية من طراز فانتوم فى وقت يقل عن الزمن الذى حققه الأمريكيون. وسجل ضيوفهم رقمًا قياسيًا إسرائيليًا عندما شاهدوا إعادة ملء الطائرة فى مدة ثمانى دقائق، ثم أعلنت إسرائيل انها اختصرت هذا الزمن الى سبع دقائق ونصف دقيقة، وملأت العالم ضجيجا بهذا الرقم.

وفى مصر كانت أعمال التدريب والتجهيز لمعركة العبور تهدف إلى الوصول إلى هذا الرقم أو تسجيل رقم جديد. وقد تحقق ذلك دون أن تعلن عنه قواتنا الجوية.

لكن المفاجأة الحقيقية كانت أثناء حرب أكتوبر حيث نجح المهندسون والفنيون بقواتنا الجوية فى إعادة ملء الطائرات فى أقل من سبع دقائق، وبلغت خلال المعارك الجوية التى كانت تخوضها مقاتلاتنا ست دقائق وبضع ثوان، وكان ذلك يعكس حالة الحماس التى سادت بين الجميع بعد أن نجحت الضربة الجوية وعبرت قواتنا البرية قناة السويس واجتاحت خط بارليف المنيع.

وبذلك استطعنا أن نحقق الكثافة العددية فى سماء المعارك الجوية التى خاضتها مقاتلاتنا. وأسفر ذلك عن تفوقنا فى معارك القتال الجوى، خاصة أن قواعدنا الجوية كانت هى الأقرب إلى سماء المعركة، فى حين كان على طائرات العدو أن تحسب حساب العودة إلى قواعدها قبل أن يقل الوقود عن الكمية المطلوبة لرحلة العودة.

وهذا ما كان واضحا فى جميع معارك القتال الجوى التى دارت بين الطائرات المصرية وطائرات العدو، ومن أبرزها معارك يوم ١٤ أكتوبر الذى أصبح بعد ذلك عيدا للطيران تحتفل به مصر كل عام.

وقبل أن نخوض فى تفاصيل ما جرى فى ذلك اليوم المشهود، نرى أن نعرض لموقف العدو فى إسرائيل، وموقف ظهيره الأمريكى فى واشنطن، كما نستعرض بعض ما قاله كبار

جنرالات العالم بشأن القوات الجوية المصرية ودورها فى حرب أكتوبر.

يقول الجنرال «ستيج لوفجرين» قائد القوات المسلحة السويدية فيما كتبه عن حرب أكتوبر ما هو بالنص الدقيق طبقا للترجمة الرسمية:

«لقد استطاع الطيارون المصريون بواسطة الطائرات «الميج» سد الثغرات بين سدود وأحزمة نيران وحدات الدفاع الجوى المصرى وصنعوا بذلك أسلوبا متكاملا لأحد خطط الدفاع الجوى القائمة على الطائرات جوا ووحدات الصواريخ والمدفعيات أرضًا.. كما عمل الطيران المصرى إلى جانب الدفاع الجوى من خلال شبكات إنذار جيدة وقيادة واعية».

وفى سجلات التكتيك العسكرى البريطانى ما سجله الجنرال الشهير «أنتونى فرارهوكلى» والذى أصبح أستاذ أساتذة التكتيك فى القوات المسلحة البريطانية، والذى كتب بالحرف الواحد:

«إن الطيارين المصريين أزالوا الدور الأسطورى للطيران الإسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبالتالى تضاءل دور المدرعات الإسرائيلية فى تحقيق النجاح خلال معاركها التصادمية».

أما الموقف داخل إسرائيل فقد كان يشكل نوعًا من الاندهاش الذى صدم الفكر الإسرائيلى بشأن عدد طائراتهم ونوعياتها، وما تحدثوا عنه طويلا بشأن خبرة الطيارين الإسرائيليين وكفاءتهم، بالإضافة إلى ما تكرر عبر أبواق الدعاية الإسرائيلية فى كل أنحاء العالم حول الأرقام القياسية العالية فى إعادة ملء

الطائرات وابتكار أساليب جديدة ومبتكرة فى فنون القتال الجوى مع تقليل الفترات الزمنية التى يتم خلالها تجهيز الطائرات، بالإضافة إلى قدرتها على الوصول إلى أهدافها مما جعلهم يصفونها باليد الطولى.

لكنهم لم يتخلوا عن غرورهم الذى عاشوا فيه سنوات حتى آخر اللحظات التى سبقت انطلاق الطائرات المصرية لتدمير الأهداف المعادية.

وقد تحدث قائد سلاح الجو الإسرائيلى إلى رجاله بعد أن تصاعد عدد الطائرات الإسرائيلية التى سقطت خلال الأيام السابع والثامن من أكتوبر وبشرهم بأن التفوق سيكون لهم عندما تتقابل الطائرات فى معارك جوية مباشرة يكون التفوق فيها للطائرة الإسرائيلية وللأسلوب والتكتيك الإسرائيلى فى القتال الجوى، وقال إنه خلال القتال الجوى ستتاح الفرصة للطيارين الإسرائيليين للانتقام لضحاياهم وخسائرهم السابقة، وستقوم المقاتلات الإسرائيلية بعمل ستائر جوية لحماية المقاتلات القاذفة واستدراج الطائرات المصرية إلى معارك بعيدة لتوفر بذلك فرصة للقاذفات والمقاتلات القاذفة لضرب القواعد الجوية وإغلاق طريق عودة الطائرات المصرية إلى قواعدها، بعد أن تكون المقاتلات الإسرائيلية قد أسقطت عددا منها ولقنت المصريين درسا فى فنون القتال الجوى.

هكذا كان تصور العدو، وبقى له بعض من غرور ما قبل ظهر السادس من أكتوبر. لكنَ ظهيره الأمريكى كان يرى الصورة من

واشنطن بواقعية أكثر، خاصة بعد أن تلقى رفض مصر الموافقة على وقف إطلاق النار فى المواقع الحالية، واشترطت الحكومة المصرية قبل موافقتها على وقف إطلاق النار أن تتعهد إسرائيل، وبضمان عالمى - أمريكى وسوفيتى - على الانسحاب إلى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧.

وكان يقود التحرك من واشنطن وزير الخارجية الأمريكى «هنرى كيسنجر» والذى كان يأمل فى أن تقوم القوات الإسرائيلية بتحسين موقفها فى جبهة القتال خلال الساعات التى تسبق اجتماع مجلس الأمن لبحث مشروع قرار بوقف إطلاق النار لأنه يرى - أى كيسنجر - أن مصر لن تقبل بوقف إطلاق النار إلا بتعهد إسرائيلى ودولى بالانسحاب إلى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧ هذا ما جاء فى صفحتى ٥٢٢ و٥٢٣ بالجزء الثانى من مذكرات «هنرى كيسنجر» بعنوان «سنوات القلاقل».

وفى هذه المذكرات جاء ما يفيد أن كيسنجر كان يعمل بجد ونشاط لتحسين موقف إسرائيل خلال ما كان يفترض أنه إجازة نهاية الأسبوع وأنه اتصل ليلة السبت - الأحد ١٣ و ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ بالسفير الإسرائيلى فى واشنطن «سيمحا دنتيز» وأبلغه رسالة عاجلة إلى رئيسة مجلس الوزراء الإسرائيلى «جولدا مائير» يطلب فيها بإلحاح ضرورة قيام إسرائيل بعمل سريع يؤدى إلى تحسين موقفها العسكرى على الجبهة المصرية وأن يكون ذلك خلال يوم وليلة، لا أكثر، حيث إن ذلك سيقوى الموقف الأمريكى فى مواجهة الاتحاد السوفيتى، ويجعل للولايات المتحدة اليد العليا

ويقلص من حجم المواجهة الأمريكية مع الاتحاد السوفيتى التى يجب ألا تكون طويلة. وكان يرى أن ذلك ضروريا قبل انتهاء إجازة نهاية الأسبوع التى سيجتمع بعدها مجلس الأمن.

وفى المقابل تلقى «كيسنجر» رسالة من موسكو بتوقيع «برجينيف» جاء فيها أن الانحياز الأمريكى الكامل لإسرائيل هو الذى يجعل مصر ترفض قبول وقف إطلاق النار الآن. ويقول كيسنجر فى مذكراته: إنه رد على برجينيف وقال له: إن الجسر الجوى الذى يمد العرب بالسلاح السوفيتى وراء عنادهم.

وكانت واشنطن ترى عدم الاكتفاء بمخاطبة موسكو فى محاولة للضغط على مصر، وأن عليها أن تلجأ الى أطراف أخرى لها تأثيرها على القاهرة انتظارا لتحسن الموقف العسكرى لصالح إسرائيل. وكان هذا الطرف الذى يرى «كيسنجر» اللجوء إليه هو المملكة العربية السعودية.

وتم إعداد خطاب إلى الملك فيصل بتوقيع الرئيس الأمريكى نيكسون وأن يأخذ شكل الخطاب الشخصى ويتم إبلاغه إلى الملك عبر رسالة شفوية اختصاراً للوقت، وأن ينبه الرئيس الأمريكى فى هذه الرسالة إلى تزايد النفوذ الشيوعى فى المنطقة، بقصد كسب تعاطف السعودية.

وجاء رد الملك فيصل الفورى على خطاب الرئيس الأمريكى فى نفس اليوم وقال فى رسالته:

«لقد استلمت رسالتكم الشفوية واستمعت إلى تصريحاتكم العديدة التى تؤيدون فيها حق كل دولة فى الشرق الأوسط فى

الحفاظ على أمنها واستقلالها، كما سمعت الكثير عن رغبة الولايات المتحدة فى نشر لواء السلام الدائم فى العالم، فهل هذا الحق يقتصر على دولة واحدة فى المنطقة أم يسرى على جميع دولها؟! لقد انحسر المد الشيوعى انحسارا كان يبشر بالخير نتيجة للجهود التى بذلت فى سبيل ذلك، وقد أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية تشهدون بها، ومنها تخفيض عدد الروس فى مصر، لكننا نقول وبمزيد من الأسف إن الولايات المتحدة لم تستفد من هذه الخطوات الإيجابية معتقدة أنها سيطرت على الوضع فى العالم بعد أن نسقت سياسيا مع الاتحاد السوفيتى تجنبا للمجابهة، متجاهلة أن الأهواء والمطامع لا يمكن السيطرة عليها بالاتفاقيات والمعاهدات التى سوف تتمزق عند أول فرصة سانحة، كما حدث فى مستهل الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى».

وبينما كان الرئيس الأمريكى يتسلم رسالة الملك فيصل كانت القيادة الإسرائيلية تجتهد فى تنفيذ نصيحة «كيسنجر» بشأن تحسين موقفها العسكرى، وكان سبيلها إلى ذلك العمل سريعا على استعادة التفوق الجوى المسلوب، ومحاولة تحجيم نشاط القوات الجوية المصرية وإفساح المجال لهجمات جوية إسرائيلية على المطارات، لعرقلة انطلاق الطائرات المصرية لمواجهة الغارات الإسرائيلية التى أعدوا لها.

وهذا ما شكل أحداث يوم ١٤ أكتوبر وهو يوم مشهود أصبح عيدا دائما لقواتنا الجوية.

وقبل أن نسرد تفاصيل المعارك الجوية التى دارت فى هذا اليوم وأسفرت عن فشل إسرائيل فى تحقيق ما كان يهدف إليه «هنرى كيسنجر» بطلبه وإلحاحه على «جولدا مائير»، علينا أن نعرض أولا الموقف العسكرى فى ذلك اليوم طبقا للتقرير الصادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة، وهذا نصه:

«أعاد العدو تنظيم دفاعه على الجبهة المصرية على أساس فكرة الدفاع المتحرك مستخدما الستائر المضادة للدبابات بكفاءة وبالتعاون مع الهليكوبتر بستائر مضادة للدبابات. ويهدف العدو إلى استنزاف القدرة الهجومية لقواتنا بإحداث أكبر خسائر فى مدرعاتنا وهو يحتفظ باحتياطياته ليستخدمها بعد إعادة البناء فى ضربات مضادة يطورها ضد رؤوس الكبارى لاستعادة الموقف على القناة، وهو يدفع بعناصر مضادة للدبابات فى اتجاه الجبهة.

وقام العدو بقصف جوى ضد تشكيلات برية ومطارات ووسائل الدفاع الجوى وقام بطلعة استطلاع ودمرت له طائرتان للاستطلاع من طراز فانتوم.

وفى المقابل قامت قواتنا الجوية بقصف أهداف معادية حتى عمق مائة كيلومتر شرقا وقامت طائراتنا بتقديم المعاونة للتشكيلات المدرعة أثناء التقدم.

وقامت قواتنا الجوية بالاعتراض لطائرات العدو وأسقطت له ١٥ طائرة فى معارك جوية، كما قامت قوات الدفاع الجوى بتأمين قواتنا فى رأس الكوبرى حيث أصابت للعدو ٢٩ طائرة منها طائرتا استطلاع».

ونعود إلى تفاصيل ما دار فى هذا اليوم المشهود الذى كان أمجد أيام تاريخ القوات الجوية المصرية، باعتراف المعلقين العسكريين العالميين، وباعتراف القادة الإسرائيليين أيضا.

لقد ظهرت تشكيلات جوية معادية إسرائيلية قادمة من الشمال على ارتفاعات منخفضة وموزعة على ثلاث مجموعات وبدأت فى الدخول إلى المجال الجوى المصرى من ناحية البحر فى اتجاه رأس البر وبلطيم وجمصة وتم رصدها بواسطة مجموعات المراقبة وإبلاغ اتجاهات هذه المجموعات وخطوط اقترابها.

وكان من الواضح أن العدو يهدف بهذا العدد الكبير من الطائرات إلى مهاجمة المطارات المصرية فى منطقة الدلتا والتى تنطلق منها أسراب الطائرات التى تهاجم أهدافا معادية على الجبهة وفى العمق، وأن يتم ذلك فى وقت واحد بواسطة المقاتلات القاذفة طراز فانتوم وبأسلوب غير متوقع. وكان يأمل فى أن تتفرغ مقاتلاتنا لمحاولة صد الهجوم وتشتبك مع المظلة الإسرائيلية فتفسح المجال بذلك أمام القاذفات المقاتلة الإسرائيلية وبالتالى تتمكن من تحقيق الهدف الخفى للهجوم.

وأعد العدو لهذه الخطة تشكيلات جوية أخرى غير مشاركة فى الهجمة الجوية الكثيفة وتنتظر هذه التشكيلات نجاح الهجمة الجوية الأولى، وانشغال أسرابنا بالمعركة الدائرة مع تلك التشكيلات فتقترب عندما يسنح الوقت وتحين الفرصة للدخول على مجموعتين من شمال شرق وشمال غرب بورسعيد بعيدا عن

خطوط الدخول الأولى وبارتفاعات منخفضة لا تزيد عن ٢٥٠٠ مترا وبعضها ينطلق على ارتفاع ٥٠٠ متر فقط.

وكانت بعض طائرات هذه المجموعة المكونة من ٦٠ طائرة تشكل مظلة للحماية يمكنها التدخل ضد المقاتلات الاعتراضية المصرية خلال مراحل القتال الجوى بينما تقوم المقاتلات القاذفة الفانتوم بقصف المطارات وممرات الهبوط للحيلولة دون إمكانية عودة الطائرات المصرية سالمة إلى قواعدها، بل وسيكون من الصعب جدا إقلاع طائرات مصرية أخرى من قواعدها أو العودة إليها بعد أن تنجح المجموعة الخفية فى قصف الممرات الجوية وسائر منشآت المطارات المصرية فى منطقة الدلتا، وما حولها.

كانت هذه هى خطة العدو التى أعد لها بدهاء مستخدما كل ما تبقى له من قدرة على ابتكار تكتيك جديد. غير أن ذلك كله كان ضمن ما تم تدريسه ومناقشته فى فرق التدريب المتقدم لرجال قواتنا الجوية، ومنهم رجال التوجيه الجوى وغرف العمليات المدربة على إدارة حركة الطائرات من الأرض. لقد كانت هناك طائرات مصرية تحلق فى الجو وتمثل مظلة جوية مستمرة بصورة دائمة ومتجددة لإجهاض أى مفاجأة معادية تأتى عبر خطوط الدخول المتوقعة، فضلا عن وجود تشكيلات أخرى فى درجة الاستعداد القصوى فى مطارات الدلتا. وانطلقت هذه الطائرات لتعزيز المظلة الجوية وتم الدفع بتشكيلات أخرى من قواعد مختلفة لتكون فى المكان المناسب من سماء المعركة فى أقل من دقيقتين.

ولم يكن أمام المجموعات الأولى من طائرات العدو سوى التخلص من خزانات الوقود الإضافية والتفرق فى تشكيلات قتالية لتحقيق المناورة والتمكن من التحرك بمرونة فى مواجهة المقاتلات الاعتراضية المصرية.

وفى هذه المرحلة نجحت طائرات الاعتراض المصرية فى إسقاط أول طائرة مع بداية الاشتباك وتم الدفع بتشكيل آخر من المقاتلات المصرية ميج ٢١ للتعامل مع الطائرات المعادية التى بدأت تناور فوق منطقة الهدف المتجهة إليه دون أن تقترب أكثر، تجنبًا للمظلة الجوية المصرية المتربصة لها.

ونجح الموجهون الأرضيون فى كشف التشكيلات المعادية القادمة من شرق وغرب بورسعيد، والتى لم تعد الفرصة سانحة أمامها لتحقيق المفاجأة؛ نظرًا لوجود مظلة جوية مصرية فى انتظارها، مع تنظيم كمائن جوية لطائرات العدو تمثل خطرا بالغا على الطائرات المقتربة فى ارتفاعات منخفضة، مما يجعله فى مرمى نيران وصواريخ طائرات المظلة الجوية. ولعبت غرف العمليات الجوية ورجال التوجيه الأرضى دورًا رائعًا فى إفساد خطة العدو، كما جاوز المهندسون والفنيون الذين يعملون فى إعادة الملء كل الأرقام المتوقعة، وكان ذلك يتم فيما لا يتجاوز خمس دقائق إلا بثوان قليلة، وكان الطيارون المصريون لا يغادرون طائراتهم عند إعادة الملء ليواصلوا المشاركة فى القتال، مما حقق تفوقا كبيرا لطائراتنا، فى حين ساد الاضطراب بين طيارى العدو نتيجة فشل خطتهم الخبيثة، ونتيجة استمرار المعركة لفترات

طويلة تستهلك ما لديهم من وقود فى جسم الطائرة بعد أن تخلصوا مبكرا من خزانات الوقود الإضافية عندما فوجئوا بطائرات المظلة الجوية المصرية فى انتظارهم. ومع مرور الثوانى كان من المحتم أن تضطرب أعصاب الطيارين الإسرائيليين مع كل قطرة وقود يفقدونها نتيجة اضطرارهم إلى المناورة هربا من نيران طائرات «الميج ٢١» الاعتراضية وخشية من تدخل تشكيلات جوية أخرى تقلع من المطارات المصرية القريبة.

ومع ارتباك الطائرات المعادية واضطراب الطيارين الإسرائيليين ومحاولة عدد منهم الخروج من منطقة المعركة والفرار سريعا قبل أن ينفد الوقود لجأ بعضهم إلى التخلص من بعض حمولته من القنابل بإسقاطها فى الحقول الخالية.

وفى هذه الأثناء انقضت المقاتلات المصرية على طائرات العدو الميراج والفانتوم، ومعها باقى طائرات التشكيلات الجوية التى انطلقت من مطارات أخرى. وانحسرت مهارة بعض الطيارين الإسرائيليين فى نجاحهم فى الخروج من المعركة، والانسحاب السريع خارج المجال الجوى المصرى، بينما كان غيرهم أقل حظا فسقطت به طائرته أو أصيبت وقفز منها بالمظلة الواقية، وأسعده الحظ بأن يكون أسيرا. وانتهت بذلك أطول معركة جوية فى تاريخ الحروب.

وصدر البيان العسكرى فى الساعة التاسعة والربع من مساء هذا اليوم حول المعارك الجوية ليسجل هذا النصر الذى سيبقى أبدا فخرا لقواتنا الجوية، وهذا نصه:

«البيان رقم ٣٩ بتاريخ ١٤/١٠/١٩٧٣ سعت ٢١١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

دارت اليوم عدة معارك جوية بين قواتنا الجوية وطائرات العدو التى حاولت مهاجمة قواتنا ومطاراتنا، وكان أعنفها المعركة التى دارت بعد ظهر اليوم فوق شمال الدلتا، وقد دمرت خلالها للعدو ١٧ طائرة وأصيبت لنا ست طائرات، كما تمكنت وسائل دفاعنا الجوى من إسقاط ٢٩ طائرة للعدو منها ٣ طائرات هليوكبتر طوال اليوم، وبذا يكون إجمالى خسائر العدو من الطائرات فى معارك اليوم ٤٤ طائرة منها ٣ طائرات هليكوبتر وتم أثر طيارين إسرائيليين شرق قاعدة المنصورة واستشهد عدد «٢» طيار مصرى».

وغيرت هذه المعركة تاريخ قواتنا الجوية، فقبلها كان عيد الطيران هو اليوم الثانى من نوفمبر وفيه نحتفل بذكرى نشأة سلاح الطيران المصرى، حيث وصل فى ذلك اليوم إلى مطار الماظة الحربى أول سرب طائرات مصرية قادما من بريطانيا ويقوده طيارون مصريون يمثلون أول نسور لمصر فى التاريخ.

وبعد المعارك الجوية التى دارت فى اليوم الرابع عشر من أكتوبر ١٩٧٣ أصبح هذا اليوم هو عيد قواتنا الجوية الذى سنظل نحتفل به على مدى الدهر..

الكتاب الثانى

القائد الأعلى

إقالة جميع القيادات الرافضة للحرب بقرار واحد

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف بعد ظهر يوم الأربعاء الأول من نوفمبر عام ٧٢ عندما بدأ وصول المدعوين إلى الغداء وتوالى وصول باقى المدعوين الذين كانوا جميعًا يرتدون ملابس مدنية لا تكشف عن هويتهم العسكرية وقد غلبت على أزيائهم ملابس شبابية من الصوف الخفيف تناسب شتاء القاهرة الدافئ، واكتمل العدد بوصول الضيف الثالث الذى رحب به صاحب البيت.

وجلس الأربعة فى الصالون المتواضع فى مواجهة مدخل الشقة الكائنة بالدور الأول من العمارة القديمة بالعباسية.

وبدأ حديث الذكريات بين الأصدقاء فى انتظار وصول الكباب الذى أوصى به صاحب البيت، لكن الحديث سرعان ما تطرق إلى قصة مدرسة المدفعية وما جرى فيها منذ يومين ظهر يوم الأحد ٢٩ أكتوبر.

وجاءت التفاصيل على لسان أحد الضباط كما سمعها من أحد زملاء دفعته وهو ضابط ألحق حديثًا بمدرسة المدفعية.

قال: إن الموضوع انتهى تقريبًا وأن تسويته ستتم بعد أن أنكر الضابط ما قاله، وردًا على الاستفسارات روى تفاصيل الواقعة.. قائلاً:

«كان ذلك بعد ظهر يوم الأحد أثناء اجتماع التوعية، وكان القادة قد حضروا جلسة توعية كُلفوا باستكمالها مع الضباط فى وحداتهم طبقًا للنظام الموضوع، ورأس قائد مدرسة المدفعية الجلسة مع ضباطه كالمعتاد وبدأ يتكلم عن الأحداث المهمة التى تجرى الآن، وأسباب تعيين وزير الحربية الجديد الفريق «أحمد إسماعيل» بدلاً من الفريق «محمد صادق»، وقال قائد المدرسة: إن السوفييت لم يطلبوا إبعاد الفريق صادق وأن أسباب إقالته ترجع إلى أن الرئيس السادات سبق أن كلفه بمهمة قتالية وتبين فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى بيت الرئيس يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر أن الفريق صادق لم ينفذ المهمة. كما أن طرد المستشارين السوفييت جاء بقرار من الرئيس شخصيًا وبمبادرة منه، على أساس ما تم من تدريب أطقم مصرية للعمل فى كتائب الصواريخ أرض جو وحاجة القوات المسلحة المصرية».

وتكرر اجتماع الأصدقاء فى بيت زميلهم وواصلوا فى اجتماعهم التالى الحديث عن أسباب خروج وزير الحربية الفريق «محمد صادق» وكان الاجتماع هذه المرة يضم ضابطًا جديدًا.

وتكلم أحدهم عما ردده أحد المقربين من الفريق صادق عن أسباب عزله قائلاً: إن ذلك كان متوقعًا بعد التقرير الذى قدمه الوزير إلى الرئيس حول المشاكل التى تواجه الإعداد لأية عمليات هجومية وهذا التقرير يؤكد صعوبة القيام بعمليات هجومية باستخدام أسلحة دفاعية.

ويومها قال البعض: إن هناك حاجة إلى طائرات ردع تستطيع الوصول إلى عمق إسرائيل، وقال اللواء «على عبدالخبير» قائد المنطقة المركزية: إن هناك نواقص كثيرة فى القوات المسلحة بالنسبة للمعركة الهجومية أهمها نقص وسائل المواصلات وأسلوب فتح الثغرات فى حقول الألغام، لكن قائد المدفعية رد على ذلك قائلاً: إنه يجب أن نقوم بعمل هجومى فى حدود إمكاناتها. وأكد ذلك الفريق «الشاذلى» عندما قال: إنه على الرغم من النواقص كلها فإن القوات المسلحة تستطيع القيام بعملية هجومية.

وكان رد فعل هذه التقارير هو قرار الرئيس إقالة من يعترض على الخطة ويعرقل الإعداد للعمليات الهجومية، وكان أولهم وزير الحربية نفسه والمتعاطفون مع رأيه بشأن صعوبة الهجوم.

توقف الضباط عن الحديث.. وبعد فترة صمت اقترح أحدهم زيارة الفريق صادق، لكن زميله أكد صعوبة ذلك لأنه لا يستقبل أحدًا هذه الأيام، كما أنه متحفظ فى كلامه.

قال أحدهم: إن هناك قوة سياسية خفية تريد أن تدفع بالقوات المسلحة المصرية إلى الحرب قبل أن تستكمل استعداداتها وأن الأمر سينتهى بتدمير القوات المسلحة ويسقط النظام وتعم الفوضى وتسقط مصر فى يد الشيوعية الدولية.

ونظر المتحدث صوب زميله وكأنهما قد اتفقا على توزيع الأدوار، وسارع صاحبه بطرح سؤال، وكانت الإجابة أنه يرى من الضرورى عمل شىء لإنقاذ مصر.. وردد العبارة الأخيرة وهو يتعمد الضغط على حروفها.. إنقاذ مصر.

وقبل أن يمضى أسبوع واحد دق جرس التليفون فى مكتب وزير الداخلية، كانت الساعة تقترب من الثانية بعد ظهر يوم السبت ١١ نوفمبر ١٩٧٢ وكان الصوت القادم عبر الأسلاك يتحدث بسرعة وبحسم.. وكان هو صوت الرئيس «أنور السادات»، قال الرئيس: «ممدوح.. أشوفك عندى فى البيت النهارده الساعة ستة بعد الظهر، تعال لوحدك ومتقولش لأى حد».

وقبل السادسة كان وزير الداخلية يدخل من الباب الرئيسى لبيت السادات الكائن بين كوبرى الجلاء وكوبرى الجامعة، وكان الرئيس فى انتظاره.

وغادر المجتمعون منزل السادات فى العاشرة مساءً بعد اجتماع امتد أربع ساعات ليقوموا بتنفيذ أوامر الرئيس من داخل هيئة المخابرات العامة فى القبة، وكان كل ضباط الأفرع فى حالة

تأهب لتنفيذ مهمة لم يعرفوا عنها شيئًا حتى تلك اللحظة، واستغرق تنفيذها طوال ليلتى السبت ١١ والأحد ١٢ نوفمبر ١٩٧٢.

وتحركت السيارات إلى البيوت تحمل كل منها مجموعة من ثلاثة أفراد لتعود إلى مبنى المخابرات العامة وفى داخل كل سيارة أحد المتورطين.

وتجاوز الرئيس «أنور السادات» مرحلة التخلص من معارضى القيام بعملية عسكرية هجومية، وأصبحت جميع أفرع القوات المسلحة تحت قيادة عناصر تؤمن بفكرة عبور قناة السويس ومواجهة العدو شرق القناة ووضع خطة متكاملة لذلك اعتمادًا على ما يتوافر للقوات المصرية وليس طبقًا للمفترض توافره.

وبتعيين القيادات الجديدة، وباستبعاد المتخوفين من فكرة الحرب وبواسطة ما يتوافر من سلاح ومعدات، بدأ دوران عجلة الحرب على مدى عشرة أشهر كانت تجرى خلالها عمليات تمويه وخداع استراتيجى تمهد لحلقات أخرى من الخداع التكتيكى الذى يسبق ساعة الصفر. وعندها تكتمل كل خيوط الخطة التى صنعت أحداث أكتوبر ١٩٧٣.

وكان العدو الإسرائيلى ينظر للأمر من زاوية أخرى تؤكد لديه عدم جدية مصر فى الهجوم.

لقد اكتشف العدو أن مصر قامت بتسريح بعض الجنود وإحالتهم إلى الاحتياط وأن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بتصديق من الرئيس «السادات»، وشكل ذلك مفاجأة للجميع حتى بالنسبة

للمجندين أنفسهم الذين شهدوا أحداث يونيو ٦٧ وبقوا فى الخدمة سنوات طويلة حتى تم تسريحهم.

ورأت إسرائيل فى ذلك مؤشرًا من مؤشرات اليأس عند المصريين دون أن ينتبه أحد إلى أن الجنود المسرحين كانوا من غير حملة المؤهلات ومعظمهم من العاملين فى مواقع غير قتالية وليس منهم من يشارك فى الوحدات الضاربة، كما أعادت أجهزة تحليل المعلومات فى إسرائيل دراسة النكات التى انتشرت فى مصر عن الضباب الذى يحول دون محاربة إسرائيل، وأعادت دراسة نتائج قرار السادات بالاستغناء عن الخبراء السوفييت.

وقصة الضباب جرت من قبل عندما أعلن الرئيس «أنور السادات»: أن سنة ١٩٧١ ستكون سنة الحسم وأن احتلال إسرائيل لشبه جزيرة سيناء سيتم حسمها حربًا أو سلمًا قبل بداية عام ١٩٧٢ .

وتوقع الناس الحرب فى ديسمبر، وفى بداية ذلك الشهر - وبالتحديد يوم ٣ ديسمبر ١٩٧١- اندلعت الحرب الهندية الباكستانية وكان السوفييت مشغولين بدعم الهند فى مواجهة باكستان التى تحظى بالتأييد الأمريكى.

ومع بداية يناير ١٩٧٢ تحدث الرئيس «السادات» ليبرر انتهاء عام الحسم دون حسم: وقال: إن الضباب حال دون قيام مصر بالهجوم وأن نشوب الحرب فى القارة الهندية جعل المسرح العالمى غير متقبل للحرب فى الشرق الأوسط، وأن السوفييت قاموا بتركيز جهودهم لتأييد الهند.

وروى «السادات» قصة الضباب مع الرئيس «جمال عبدالناصر» يوم أصدر أمرًا بتوجيه ضربة جوية إلى قوات العدو المتمركزة شرق القناة. لكن الطائرات واجهت ضبابًا كثيفًا يحجب الرؤية، فعادت إلى قواعدها دون أن تقوم بتنفيذ المهمة. وأصدر الرئيس «عبدالناصر» أوامره بأن تقوم الطائرات بمهمتها بعد ساعة أو ساعتين، لكن الضباب لم ينقشع ولم تتمكن الطائرات من تنفيذ المهمة، وتكرر ذلك للمرة الثالثة عندما حال الضباب أيضًا بين الطائرات وبين قذف مواقع العدو شرق القناة واضطر الرئيس عبدالناصر إلى إلغاء الأمر قائلاً: «ربنا مش عايزنا نقوم بهذه الضربة».

وبعد أن روى الرئيس السادات هذه القصة أعلن أن الضباب حال دون الحسم قبل عام ١٩٧٢ وأن نشوب الحرب بين الهند وباكستان هو أيضًا شكل من أشكال الضباب. وانطلقت النكات حول الضباب، وكان من بينها نكتة تقول: إن الرئيس «السادات» أصدر أمرًا بأن يكون عام ٧٢ امتدادًا لعام ٧١ وأن يسمى ٧١ بشرطة أو عام ٧١ مكرر.

وتم إبلاغ الرئيس «السادات» بهذه النكات، ولم يغضب وإنما شعر أن ذلك قد يفيد وأنه يدعم عمليات الخداع والتمويه الاستراتيجي ويشعر العدو بعدم جدية مصر في قرار الحرب، لكن السادات كان يفكر في منع انعكاس ذلك على القادة وعلى معنويات القائمين بالتخطيط للعبور ولمفاجأة العدو شرق القناة.

ولعب قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت نفس الدور لكنه كان دورًا مزدوجًا؛ لأنه وضع القيادات العسكرية أمام مسئولياتها كاملة، وضاعف من حماس ضباط العمليات، وأزال آثار تخوفات البعض من النفوذ السوفيتى فى مصر، وأكد الإحساس لدى إسرائيل بعدم جدية مصر فى الإعداد لعمليات هجومية.

وجاء قرار تسريح بعض الجنود ليشكل مرحلة مهمة من مراحل الإعداد للحرب، وساعد فى الوقت نفسه على خداع العدو وتأكيد مشاعر الاطمئنان فى وجدانه وعلى ترهل قادته العسكريين والسياسيين على السواء.

وهذا ما كان يدور فى رأس السادات ويمثل جانبًا رئيسيًا من شخصيته، والواقع أن الاستغناء عن هذا العدد من المجندين كان جزءًا من تطوير خطة التعبئة العامة فى مصر بعد قرار وقف نقل الجنود إلى الاحتياط وهذا القرار صدر عام ١٩٦٧ وكان له تأثيره على معنويات الأفراد بعد أن مضى عليهم فى التجنيد ما يقرب من ست سنوات، كما كان يشكل عبئًا ماليًا دون جدوى لوجود نسبة كبيرة منهم خارج التشكيلات المقاتلة وفى مواقع خلفية ضمن أعداد كبيرة مخصصة لحماية العمق وحراسة المنشآت الحيوية.

وأدخلت أجهزة التعبئة نظام الاستدعاء بواسطة الكمبيوتر مع الاستفادة من نظم الاستدعاء المطبقة فى كل من السويد وسويسرا وإسرائيل وهى نظم متطورة للغاية تعتمد تمامًا على الكمبيوتر. وأقر الرئيس «السادات» النظام الجديد وأمر بتوفير

التمويل اللازم لتطبيقه، وتحمس كثيرًا لخطة تطوير التعبئة، ووجد فيها ما يساعد على خداع العدو الذى لم يفهم القصد الحقيقى من قرار تسريح عشرات الألوف من الجنود المصريين ونقلهم إلى الاحتياط.

ولم يستطع أحد الإلمام بحجم الحشد الحقيقى الذى ستقوم به مصر استعدادًا للمعركة الهجومية، وهذا ما كان موضع المناقشة فى الاجتماع التالى للمجلس الأعلى للقوات المسلحة الذى رأسه أنور السادات.

اعتمدت خطة الهجوم على العبور بطول جبهة القناة كلها حتى يعجز العدو عن اكتشاف المحاور الرئيسية للهجوم ويفاجأ أيضًا بحجم القوات.

وجلس الرئيس «السادات» يتابع حجم هذه القوات التى يمكن حشدها لتنفيذ الخطة الهجومية.

وابتسم الرئيس «السادات» وهو يقر رأى القادة بأن الحشد كاف لتحقيق خطة العبور طبقًا للاحتياجات رغم أن فلسفة الإعداد للعبور كانت تستند فى بدايتها إلى حتمية الحرب بما يتوافر من إمكانيات وليس بما يجب أن يكون.

كما استمع الرئيس «السادات» إلى تقرير سريع حول التوصيات السرية التى وضعها رؤساء أركان حرب القوات المسلحة العربية خلال اجتماعهم بالقاهرة باعتبارهم هيئة مجلس

الدفاع العربى المشترك، وقد أقر المجتمعون استمرار الدعم العسكرى المقرر من قبل.

وقبل أن يعلن الرئيس السادات انتهاء اجتماع المجلس الأعلى طلب من الحاضرين إعداد تقرير جديد عن الخطوات التى تم إتخاذها بالنسبة لخطة الخداع التعبوى وعمليات التعمية والخداع التى تؤكد لدى العدو الإحساس بعدم تفكير مصر فى عملية هجومية، وأكد الرئيس «السادات» أن أجهزة الدولة جميعها ستشارك فى أعمال المساندة المطلوبة بما فى ذلك شركات المقاولات المدنية.

وطلب الرئيس أن تعرض عليه الاقتراحات المطروحة لتذليل المصاعب التى تواجه عملية العبور والتى لخصها فى خمس نقاط رئيسية هى:

١ ـ طرق دفع القوات إلى الممر المائى ووسائل عبوره رغم وجود المعوقات على ضفتى القناة بما فى ذلك الساتر الترابى الهائل شرق القناة.

٢ ـ وسائل إخماد النيران فوق سطح مياه القناة أو منع تسريبها دون أن يشعر العدو بمحاولات تخريبها.

٣ ـ مفاجأة العدو بعبور المجموعات الأولى من القوات وتأمينها ضد نيران العدو الصادرة من مدفعيته ودباباته ورشاشاته.

٤ ـ كيفية ارتقاء السد الترابى الذى يبلغ ارتفاعه عشرين متراً.

٥ ـ توفير أسباب نجاح قوات العبور المترجلة فى مواجهة دبابات العدو وعرباته المدرعة.

وأخيراً.. وبعد أن نصل إلى حلول ممكنة وحاسمة لهذه المعضلات يصبح أمام سائر الوحدات المقاتلة التدريب عملياً على الدور الذى تكلف به كل وحدة بصورة تبدو طبيعية دون أن تلفت نظر العدو ودون أن تتعارض مع خطة الخداع وتحقيق المفاجأة الكاملة له.

قرار طرد الروس جعل الإسرائيليين يعتقدون أن مصر تتجه للحل السلمى

خرج الرئيس من اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة وهو مشغول بأمور أخرى.

لم يكن تفكيره مقصوراً على مشاكل العبور وطرق تذليلها، لكن كان الرئيس مهتمًا أيضًا بما يدور فى إسرائيل وكيف يفكر الآخرون هناك؟

وطلب الرئيس تلخيصًا لجميع تقارير المخابرات العامة والمخابرات الحربية ووزارة الخارجية وهيئة الاستعلامات حول هذا الأمر، وجاء التقرير..

إن القادة العسكريين فى إسرائيل تابعوا تنفيذ القرار المصرى بالاستغناء عن الخبراء السوفييت وتأكد لهم أنه قرار جاد تم تنفيذه بالفعل.

ويرى السياسيون فى إسرائيل أن الاستغناء عن الخبراء السوفييت وعودتهم إلى بلدهم يؤكد اتجاهات مصر نحو التسوية السلمية دون حرب، وأنها بهذا القرار تحاول دفع الرئيس الأمريكى نحو القيام بدور أكبر من أجل التسوية السلمية وفى

الوقت نفسه فإن هذا القرار يرضى بعض الدول العربية التى تقدم المساعدات والقروض لمصر وتخشى من وجود العناصر الشيوعية فوق الأرض المصرية.

وأصبح قادة إسرائيل على يقين من أن مصر وسائر الدول العربية لا تستطيع خوض حرب جديدة فى مواجهة الخطوط الدفاعية القوية التى أقامتها إسرائيل والمعروفة باسم «خط بارليف» نسبة إلى الجنرال «حاييم بارليف» صاحب الفكرة والمخطط الأصلى لبناء خط دفاعى ثابت على ضفة القناة الشرقية.

وهناك أصوات أخرى فى المعارضة الإسرائيلية وداخل الأحزاب اليمينية والدينية تحذر من الاطمئنان الكامل إلى هذه الأفكار، ويعبر قادة حزب «الرافى» وهو من الأحزاب اليمينية الصغيرة عن ذلك ويرون أن من الخطأ اطمئنان قادة إسرائيل إلى ذلك وترديد الكلمات التى يتشدق بها العسكريون الإسرائيليون ممن ركنوا إلى الراحة والاطمئنان.. وترهلوا وبدءوا يبحثون عن تعويض لحياة التقشف التى عاشوها من قبل..؛ ولذلك خصصوا لأنفسهم السيارات الفارهة ودخنوا السيجار الفاخر واتجهوا إلى جمع المقتنيات والقطع الأثرية وغرقوا فى قصص الحب والغرام.

ويقصد زعماء أحزاب المعارضة الإسرائيلية بهذا الكلام - تحديدًا - الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى الذى انفصل عن زوجته السيدة «روت شوارتس» ليعيش مع فتاة صغيرة وعدها بالزواج، كما أنه يخصص جزءًا كبيرًا من وقته فى التنقيب عن الآثار وجمع المقتنيات الأثرية.

لكن نجاح خطة الخداع المصرية فى مراحلها الأولى جعلت أصوات الأحزاب المتشددة فى إسرائيل تخفت، فى حين اطمأن القادة العسكريون - ومعهم معظم أعضاء مجلس الوزراء - إلى استحالة عبور القوات المصرية لقناة السويس.

وفى الوقت نفسه استمرت فى مصر خطط التدريب على جميع مراحل العبور لتوضع موضع التنفيذ على مستوى الفرق والألوية والكتائب، وبدأت مجموعات التعمية تضع خطط الخداع التكتيكى التى تكمل خطة الخداع الاستراتيجى الذى بدأ يأتى بنتائج مشجعة.

واستدعى «الجمسى» أحد الضباط وقال له:

«يا صلاح.. هناك كتاب ترجمته المخابرات عندنا عن الأعياد والمناسبات اليهودية فى إسرائيل، هات الكتاب ده وادرسه جيداً».

ولم يكن من الصعب على العقيد «صلاح» أن يستنتج أن الهدف هو البحث عن يوم مناسب للعبور.

ووضع رئيس هيئة العمليات أمام مساعديه نص التوجيه السياسى الذى أصدره رئيس الجمهورية إلى وزير الحربية ببدء الحرب فى اليوم المناسب اعتباراً من النصف الثانى من هذا العام ١٩٧٣.

وتمر الأيام بسرعة وضباط فرع التخطيط فى سباق مع الزمن.. ودخلوا مرحلة البحث عن الموعد المناسب للحرب، والعمل فى جميع أفرع القوات المسلحة لا يتوقف استعداداً لتنفيذ الخطة الهجومية.

ومن الطبيعى أن البحث عن الموعد المناسب يبدأ منطقيًا بتحديد أنسب الشهور، ثم أنسب الأيام فى الشهر الذى يقع عليه الاختيار، ولم تكن هناك مبررات لانتظار شىء آخر بعد اكتمال مراحل الاعداد القتالى والتسليحى وتعلية السد الترابى على الضفة الغربية ليحجب ـ جزئيًا ـ الرؤية المباشرة عن أنظار العدو المسترخى على الضفة الشرقية للقناة.

وكان ذلك موضع مناقشة فى اجتماع الرئيس مع رئيس الأركان ورئيس هيئة العمليات.

وقبل عقد هذا الاجتماع الثلاثى الذى رأسه أنور السادات دار حوار سريع بين القائدين..

إن الرئيس السادات لا يحب الدخول فى التفاصيل، وقد أعلن أنه يترك إدارة الحرب للعسكريين والمتخصصين، ويرى أن القيادة السياسية فى مصر تعلمت من أخطاء تدخل غير المتخصصين فى التفاصيل الفنية والحسابات القتالية، لكنه أيضًا يريد أن يلم بكل الأبعاد من أجل تحقيق الربط العضوى بين آلة الحرب العسكرية وسائر الدوائر السياسية والدبلوماسية والقطاعات المدنية.

وهذا ما دفع رئيس الأركان إلى الحديث عن السد الترابى غرب القناة، وقال للرئيس السادات: «إن العدو تصور أننا أعددنا السد الترابى لصعود الدبابات عليه وإطلاق قذائفها من فوقه ثم الاحتماء خلفه، وهذا كلام حقيقى بالفعل، لكن الدور الأهم لهذا السد هو ستر التحركات التكتيكية قدر الإمكان رغم أنه لا يمثل

تعمية كافية لاستطلاعات العدو؛ لأنه يعتمد على التصوير الجوى بواسطة طائرات الاستطلاع».

وجلس الرئيس يستمع لباقى التقرير عن قدرات العدو الاستطلاعية:

لقد استطاعت إسرائيل متابعة كل مراحل بناء حائط الصواريخ الدفاعى غرب القناة.. والذى تقع عليه المسئولية الرئيسية فى التصدى لغارات العدو الجوية، لكن ذلك لم يكشف عن نيات مصر الهجومية باعتبار أن حائط الصواريخ يقتصر على الواجب الدفاعى، وساعد ذلك على زيادة اطمئنان العدو إلى عدم قدرة القوات المصرية على العبور؛ لأن حائط الصواريخ لا يوفر غطاءً فى عمق سيناء، وإنما تنحصر قدراته على الجانب الدفاعى بصورة أساسية، ولن يكتشف العدو خطتنا بشأن نقل صواريخ «أرض ـ جو» إلى شرق القناة خلال المراحل الأولى للعبور وأن هذه الصواريخ المحمولة بواسطة الأفراد تمثل امتدادًا حقيقيًا لحائط الصواريخ، وأكد التقرير للرئيس السادات أن ذلك سيشكل مفاجأة حقيقية للعدو لن تقل عن المفاجآت التى ستحققها الصواريخ المضادة للدبابات والتى يحملها أيضًا الأفراد المكلفون بإعداد كمائن صغيرة لاصطياد دبابات العدو وهى تشكل حلقة مهمة فى سلسلة الخداع التعبوى.

وأمن الرئيس السادات على هذا الكلام واستكمله بالحديث عن إخفاء اتفاقيات التسليح الجديدة، قال الرئيس: «إن المؤشرات العامة التى تظهر على السطح تشير إلى سوء العلاقات بين مصر

والاتحاد السوفيتى، وانعكاس ذلك على مجال التسليح، ولم يعرف أحد فى العالم شيئًا عن الزيارة السرية التى قام بها الرئيس السورى «حافظ الأسد» إلى موسكو لتحسين العلاقات دون أن يظهر ذلك فيما يذاع وينشر.

وساعد ذلك على توفير حرية أكبر لمجموعة العمليات فى بحثها عن الموعد المناسب للحرب.. ولم تجد أمامها أسبابًا للانتظار، وهذا ما أكد عليه الرئيس «السادات» حتى وهو يتحدث عن صفقة مارس لم يكن يرى فى صفقة مارس ما يدفعه للربط بينها وبين موعد الحرب، وحتى بغرض تأخر وصول ما تضمنته هذه الصفقة فإنها لن تؤخر الهجوم.

وقد أطلق الرئيس على هذه الصفقة اسم «مارس»؛ لأنها تمت فى موسكو فى شهر مارس ٧٣ ووقعها هناك وزير الحربية الفريق «أحمد إسماعيل» وسبقتها مفاوضات جرت فى القاهرة خلال زيارة سرية قام بها وفد عسكرى سوفيتى برئاسة الجنرال «لاشنكوف» واستغرقت أسبوعًا بين ٥ و١٢ فبراير ١٩٧٣.

وأشار السادات إلى ذلك فى إحدى خطبه:

«أنا قبل أن أحارب لابد أن أضع الإلكترون فى يد أبنائى» وكان ذلك مثارًا للنكت التى تسربت بالضرورة إلى مخابرات العدو دون أن يفهم أحد أن المقصود بوضع الإلكترون فى يد الجنود هو الأخذ بفنون الحرب الإلكترونية التى لم تكن معروفة للعامة من الناس فى ذلك الوقت والتى خطط السادات لها لتتجسد على

مسرح العمليات فى صورة سرب من طائرات الاستطلاع والإعاقة الإلكترونية لا يعمل العدو حسابًا لها.

ويتوالى وصول المعدات والأسلحة وقطع الغيار المتعاقد عليها سرًا والمحاطة بدعايات واسعة عن سوء العلاقات المصرية السوفيتية، وتعكف مجموعات العمل على دراسة أنسب توقيتات العبور، ومنها دراسة كتيب الأعياد والمناسبات اليهودية فى إسرائيل وكانت هناك دراسات أخرى أمام ضباط التخطيط تكمل باقى جوانب البحث، وكان الهدف من هذه الدراسات هو اكتشاف أفضل الشهور المناسبة لاقتحام القناة من حيث حالة المد والجزر وسرعة التيار واتجاهه. ولم يواجه ضباط التخطيط بفرع العمليات متغيرات كثيرة تختلف بين شهر وآخر فى تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب وعلى إقامة وتشغيل المعديات والكبارى، إن التأثير واحد تقريبًا على مدى العام كله والفرق فى المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر هو ٨٠ سنتيمترًا فى القطاع الشمالى للقناة يصل إلى مترين فى القطاع الجنوبى من الإسماعيلية وحتى السويس، وسرعة التيار فى القطاع الشمالى ١٨ مترًا فى الدقيقة تقفز إلى ٩٠ مترًا فى الدقيقة بالقطاع الجنوبى، ويتغير اتجاه التيار دوريًا كل ست ساعات من الشمال للجنوب ومن الجنوب للشمال. ومهما كان موقع الشهر على مدى السنة فإن هذه الظواهر الطبيعية ستؤثر بنفس الدرجة على وسائل العبور بالقوارب، وعلى إنشاء وتشغيل المعديات والكبارى وهو ما يجب وضعه فى الاعتبار داخل الخطط القتالية للجيشين الثانى والثالث.

وإذا لم يكن هناك تأثير للظواهر الطبيعية فى القناة عند اختيار الشهر فإن الأمر يختلف بالنسبة للمؤثرات الأخرى وبالنسبة لساعات الليل والنهار، لقد رأت مجموعة التخطيط أن المهم اختيار يوم يتميز بطول ليله ولا يقع فى فترة تتعرض لتقلبات جوية شديدة تؤثر على تحرك القوات، ويتداخل ذلك مع عوامل أخرى تتعلق بأن يكون اليوم الذى يقع عليه الاختيار بمثابة مفاجأة للعدو.

وبدأ شهر أكتوبر يبرز فى وسط كل الاحتمالات، وكان من الضرورى عرض الفكرة على الرئيس السادات ومعها الاعتبارات التى جعلت شهر أكتوبر يبرز، وقالوا للرئيس:

«شهر أكتوبر ١٩٧٣ داخل الإطار الزمنى الذى حدده القائد الأعلى فى التكليف الصادر منه إلى وزير الحربية، وهذا الشهر ـ أكتوبر ـ تجرى فيه المناورات السنوية المعتادة للقوات المسلحة المصرية والمعروفة باسم مناورات الخريف، مما يساعد على خداع العدو وتفسير كل التحركات الهجومية على أنها جزء من المناورات. وتوجد ٨ أعياد إسرائيلية يتصادف وجودها فى أكتوبر منها عيد الغفران ـ المعروف باسم يوم كيبور ـ وعيد المظلات وعيد التوراة وغيرها، وازدحام هذا الشهر بالأعياد والإجازات الإسرائيلية يؤثر على إجراءات التعبئة فى إسرائيل خاصة يوم الغفران الذى تتوقف فيه الإذاعة والتليفزيون وهو يوم صيام ويتميز بالسكون الكامل.

وسيشهد شهر أكتوبر ١٩٧٣ الانتخابات العامة فى إسرائيل لاختيار أعضاء البرلمان ـ الكنيست ـ وسيسبق يوم الاقتراع

حملات دعائية ومعارك انتخابية وحزبية عنيفة ستتشغل بها كل قيادات إسرائيل».

وأصبح شهر أكتوبر يفرض نفسه بإلحاح على الذين يتولون دراسة الموعد المناسب ويجد فى الوقت نفسه ترحيبًا مبدئيًا من الرئيس «السادات». وعندما سأل السادات عن اليوم كان ذلك يعنى أنه شبه مقتنع بشهر أكتوبر. وكان أبرز الأيام المقترحة هو يوم كيبور - عيد الغفران - يوم الصيام والسكون فى إسرائيل، وهو يصادف يوم السبت السادس من أكتوبر.

فى ذلك اليوم - ٦ أكتوبر ١٩٧٣- سيكون القمر ظاهرًا فى النصف الأول من الليل لأنه يوم العاشر من الشهر القمرى، كما أن النصف الثانى من الليل، سيكون مظلمًا، وهذا يناسب تمامًا خطة العبور بحيث تنتهى وحدات المهندسين من إنشاء وتركيب الكبارى فى ضوء القمر ليستمر تدفق الأفراد والأسلحة والمعدات تحت جنح الظلام.

ويصادف هذا اليوم أيضًا يوم العاشر من رمضان وهو شهر صيام المسلمين مما يساعد على خداع العدو ويتيح الفرصة لتمثيل وافتعال احتفالات رمضانية توحى بالاسترخاء والتكاسل.

ويناسب هذا الموعد الجبهة السورية كثيرًا؛ لأن تأخير العمليات لما بعد ذلك يجعل الوقت يقترب من موسم تساقط الثلوج فوق المرتفعات السورية ويؤثر على عمليات الهجوم من جبهة الجولان.

وأعاد الرئيس «السادات» الحسابات وأخذ يرددها وكأنه

يحدث نفسه.. إن الخيوط تلتقى عند يوم السبت السادس من أكتوبر.

إنه يوم تسبقه أعياد إسرائيلية وتحيط به معارك انتخابية، وهو يوم تتوقف فيه الحياة تمامًا فى إسرائيل، وحالة الطقس تناسب الجبهتين المصرية والسورية، ويصادف شهر الصيام الذى تستبعد فيه إسرائيل القيام بعمليات هجومية، وهو يوم يمكن أن نضعه فى قلب أيام التدريبات السنوية ومناورات الخريف بصورة تبدو طبيعية ولا تلفت النظر، وسيكون فرق المنسوب بين المد والجزر فى قناة السويس أقل ما يمكن ويساعد على عبور القوارب وتشغيل المعديات وبناء الكبارى، ويتميز هذا اليوم بطول ليله وبظهور القمر فى الساعات الأولى من الليل ثم اختفائه بصورة تستر تدفق القوات إلى سيناء.

وبعد أن أظهر الرئيس اقتناعه باليوم كلف العمليات بدراسة أنسب الساعات لساعة الصفر، وأمر بالاتصال على الفور بالقيادات العسكرية السورية لدراسة اليوم والساعة معها والاتفاق على جداول العمليات وتوقيتاتها والتنسيق بين الجبهتين.

وأكد الرئيس من جديد على أن تتم الاجتماعات المشتركة بين العسكريين فى كل من مصر وسورية داخل نطاق مضاعف من السرية البالغة.

وتقرر أن تعقد هذه الاجتماعات فى الإسكندرية قبل بداية سبتمبر ١٩٧٣ وبالفعل شهدت بداية الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ١٩٧٣ اليوم التاريخى الذى سجل وصول أعضاء

المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية إلى الإسكندرية لتبدأ هناك اجتماعات المجلس المشترك لوضع جداول العمليات، وتحديد يوم الهجوم (ى)، وساعة الهجوم (س)، وبداية العد التنازلى للحرب.

خطة السادات الكبرى للتمويه

قبل أن تكتمل الساعة الثانية بعد ظهر الثلاثاء ٢١ أغسطس ١٩٧٣ رست سفينة ركاب ترفع العلم السوفيتى على رصيف اليخوت بميناء الإسكندرية، وظهر على سطحها ٦ سائحين يرتدون ملابس خفيفة ذات ألوان زاهية تناسب الحر والرطوبة التى يتميز بها طقس الإسكندرية فى مثل هذه الأيام من السنة، ولم يتخيل أحد ممن شاهد هؤلاء الستة أنهم أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية.

ودون أية إجراءات أو مراسم تلفت الأنظار وجد الضيوف الستة طريقهم إلى نادى الضباط بالإسكندرية حيث أعد مقر إقامتهم، وتأكد لكل من يعمل فى نادى الضباط أن هؤلاء مجموعة من الخبراء السوفييت فى زيارة قصيرة لمصر.

وبعد فترة راحة تخللتها وجبة خفيفة بدأ كل واحد من القادة يخرج على حدة ليصلوا جميعًا على انفراد الواحد تلو الآخر إلى مقر قيادة القوات البحرية فى قصر رأس التين، حيث يتوالى وصول سبعة من القادة المصريين، واكتمل العدد ١٤ ضابطًا بوصول رئيس أركان القيادة المصرية ـ السورية الاتحادية.

وكان القادة المصريون السبعة هم وزير الحربية» و«رئيس أركان حرب القوات المسلحة» و«قائد الدفاع الجوى» و«قائد القوات الجوية» و«قائد القوات البحرية» و «رئيس هيئة العمليات» و«مدير المخابرات الحربية».

واكتمل بذلك المجلس الأعلى للقوات المصرية ـ السورية ليبدأ اجتماعه التاريخى.

وتولى اللواء بهى الدين نوفل أعمال السكرتارية لهذا المجلس ولم يسمح فيه بالتسجيل أو بدخول أية أجهزة إلكترونية، وكان اللواء الجمسى وحده يكتب الملاحظات ومشروع القرارات ليقدم فى النهاية نسخة منها إلى وزير الحربية المصرى ونسخة مماثلة لوزير الدفاع السورى.

وظهرت فى هذا الاجتماع نقاط خلاف كثيرة رغم الاتفاق التام على الخطوط الرئيسية.

إن الجانبين المصرى والسورى يعملان معًا على أساس تعليمات القيادة السياسية فى البلدين والتى تقضى بشن عمليات هجومية واسعة على الجبهتين قبل نهاية أكتوبر تجنبًا لموسم الجليد فى الجبهة السورية، والجميع اتفقوا على أن القوات المسلحة فى الدولتين جاهزة لتنفيذ المهمة المسندة إليها وأعلنوا أنهم ينتظرون القرار السياسى ببدء الهجوم فى الموعد الذى يصدق عليه الرئيسان.

لكن اليوم والساعة ظلا موقع جدل.

كان هناك اقتراح سورى ببدء العمليات فى يوم من أيام الأسبوع الثانى من سبتمبر ما بين ٧ و١١ من ذلك الشهر، وكان الاقتراح الثانى يحدد يوم الهجوم (ى) ما بين ٥ و١١ أكتوبر، وكان أنسب هذه الأيام بالنسبة للجبهة المصرية هو السادس من أكتوبر.

وتفرعت المناقشات بين الجانبين لتتناول تفاصيل كثيرة اختلفت حولها وجهات النظر مما ترتب عليه مد الاجتماعات وتكثيفها حتى استمرت لمدة ستة أيام متواصلة، وتم تحديد فترة العد التنازلى للهجوم بعشرين يومًا تبدأ باليوم (ى ناقص ٢٠) أى قبل يوم الهجوم (ى) بعشرين يومًا، ورأى الجانب السورى أن الأمر يقتضى خمسة أيام لتفريغ معامل تكرير البترول فى حمص حتى لا تتعرض للقصف المعادى وهى مليئة بالبترول مما يشكل كارثة محققة.

وحول ساعة الصفر (س) اقترح الجانب المصرى أن تكون بعد الظهر حيث يكون قرص الشمس قد مال نحو الغرب وأصبحت أشعتها خلف المدفعية المصرية ووراء القوات وفى مواجهة العدو الذى سيكون قرص الشمس أمامه، مما يمثل مصدر تفوق للجانب المصرى. لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة للجبهة السورية؛ لأن القوات السورية تتجه فى عملياتها نحو الجنوب الشرقى، ولذلك يفضل الجانب السورى أن يبدأ هجومه صباحًا لتكون (س) أى ساعة الصفر مع أشعة الفجر الأولى.

واقترح الجانب المصرى تعديل الخطة لتبدأ القوات السورية هجومها مع الفجر وتنطلق القوات المصرية بعد الظهر، واعترض

الجانب السورى على ذلك حتى لا يواجه وحده النشاط الجوى الإسرائيلى لعدة ساعات مع احتمال قيام العدو بهجوم مضاد على الجبهة السورية قبل أن يتجه إلى الجبهة المصرية، كما أن اختلاف (س) سيفقد الخطة مزايا الهجوم المفاجئ على جبهتين فى وقت واحد.

ودرس المجتمعون فكرة أن تقوم القوات المصرية بالهجوم بعد ظهر اليوم (ى) وتؤجل ساعة الهجوم من الجبهة السورية إلى فجر اليوم التالى (ى. زائد واحد). لكن هذا الاقتراح تم استبعاده لاعتبارات سياسية باعتباره سيجعل الصورة تبدو كأنها حرب مصرية بدأتها مصر ولحقت بها سوريا فضلاً عن فقدان عنصر الحرب المفاجئة من جبهتين فى وقت واحد.

وقبل أن يتم حسم نقاط الخلاف والتوصل إلى تحديد موحد لليوم (ى) وساعة الهجوم (س) كان الرئيس «أنور السادات» قد بدأ جولة فى عدة بلاد عربية لتشكل فى حد ذاتها آخر حلقات الخداع الاستراتيجى وبداية مراحل أخرى من الخداع، واتجه الرئيس «السادات» أولاً إلى المملكة العربية السعودية ليجتمع مع الملك فيصل وترك انطباعًا بأنه يبحث فى الزيارة عن دعم سياسى سعودى فى مجال الحل السلمى، وكانت الجهود الدبلوماسية تتكامل مع النشاط الإعلامى فى أوروبا وفى دوائر الأمم المتحدة بنيويورك بقصد تحريك الجهود الدبلوماسية فى اتجاه الحل السلمى، وحرص مصر على إعادة إحياء المبادرات السياسية، وتلقى وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر أكثر

من اتصال يهدف إلى تحركه على المستوى الشخصى بعد أن انتهى موسم الإجازات الصيفية على أمل أن تجد مصر مخرجًا من ذلك الطريق المسدود الذى وجدت نفسها فيه وهى تدور حول دائرة مفرغة.

وفى قطر بحث الرئيس «السادات» مجالات التعاون المشترك بصورة تسمح بتسريب معلومات عن تفاقم الأزمة المالية فى مصر وعدم قدرتها على الحصول على سلاح وقطع غيار نتيجة نقص احتياطات العملة الصعبة وتوتر العلاقة المصرية ـ السوفيتية.

وتنتهى جولة الرئيس «السادات» فى سوريا للاجتماع بالرئيس حافظ الأسد، وتم تسريب معلومات وتحليلات إلى صحف عربية خليجية ولبنانية حول سعى السادات إلى وساطة الأسد فى تحسين العلاقات المصرية ـ السوفيتية.

ورغم كل ما فى هذا من خداع يجعله مخالفًا للحقيقة تمامًا فإن الأمر كان له بعض الانعكاس السلبى على الجبهة الداخلية المصرية وعلى الرأى العام فى مصر.

ولم يكن أحد يعلم أن «السادات» عندما بدأ هذه الجولة كان المجلس الأعلى للقوات المصرية ـ السورية يضع فى الإسكندرية اللمسات النهائية للخطة الهجومية ولخطة الخداع التى تسير جنبًا إلى جنب مع خطة العمليات وتحديد مواعيد مراحل الهجوم مع الجبهتين.

وعندما انتهت اجتماعات الإسكندرية السرية يوم الإثنين ٢٧ أغسطس ١٩٧٣ عاد الضباط المصريون فرادى إلى مقار عملهم

فى حين تفرق الضباط السوريون ليجد كل منهم طريقًا مختلفًا إلى بلاده، فذهب أحد الضباط إلى جدة لتأدية العمرة قبل أن يعود إلى سوريا وذهب آخرون إلى القاهرة واستقلوا على مدى أيام متفرقة الطائرات إلى دمشق. ومنهم من عاد على الخطوط الجوية السورية ومنهم من استخدم طائرة «مصر للطيران».

أما الباقون فقد عادوا بطريق البحر من الإسكندرية إلى ميناء اللاذقية فى الشمال السورى.

ووصل وزير الدفاع السورى إلى دمشق ليجتمع بالرئيس حافظ الأسد ويطلعه على تفاصيل ما تم الاتفاق عليه فى الإسكندرية، وفى اليوم نفسه كان الرئيس «أنور السادات» يتجه ضمن جولته العربية إلى دمشق فى زيارة رسمية تبدو ضمن جولته بحثًا عن حل سلمى وأملاً فى قيام الرئيس «الأسد» بدور فى إصلاح الأحوال بين القاهرة وموسكو.

وحقيقة ما دار فى اجتماع الرئيسين كانت مختلفة كل الاختلاف عما ذكرته الصحف وردده المحللون والمعلقون فى الوطن العربى وخارجه، لقد عقد الرئيسان اجتماعهما السرى بعيداً عن عدسات التصوير وكاميرات التليفزيون، وبحثا مع اللواء «طلاس» قرارات الإسكندرية وتوصيات القادة، واستبعد الرئيسان كل التوقيتات التى تجعل يوم (ى) أحد أيام شهر سبتمبر واتفقا على أن يبدأ الهجوم بين يومى ٥ و١٠ أكتوبر مع ترجيح اليوم السادس من أكتوبر أو قبله بيوم واحد، واقترح الرئيس «السادات» فى اجتماع دمشق تخفيض فترة العد التنازلى

من ٢٠ يومًا إلى ١٥ يومًا فقط باعتبارها كافية لكل خطوط العمليات قبل ساعة الصفر. وتم الاتفاق على ذلك، وقدم الرئيس «حافظ الأسد» تفويضًا كاملاً للرئيس «السادات» باعتباره القائد الأعلى للقيادة الموحدة للدولتين - مصر وسوريا - ليقوم بتحديد التوقيتات وإطلاق شرارة الهجوم، وتقرر أن يكون اليوم (ى) السادس من أكتوبر وأن يبدأ العد التنازلى قبله بـ١٥ يومًا أى يكون (ى - ١٥) هو الجمعة ٢١ سبتمبر ١٩٧٣م.

وعندما انعقد المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز أمر الرئيس «السادات» وزير الخارجية المصرى بأن يطلب من مندوبى وممثلى العرب التحدث عن السلام وعن التطلع إلى حلول سلمية تحقن الدماء وتنقذ المنطقة من التوتر المستمر، وكانت التعليمات الصادرة للدبلوماسيين العرب فى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية تسير فى هذا الاتجاه، وطلب الرئيس «أنور السادات» شخصيًا من عدد من الزعماء العرب مساعدة دبلوماسية فى هذا المجال باعتبار الحل السلمى هو الممكن الوحيد، ورغم تحفظ بعض الدبلوماسيين المصريين على هذا الأسلوب إلا أنهم التزموا بما صدر إليهم من تعليمات دون أن يتبادر إلى ذهن أحد منهم أنه سيقوم بدوره فى خطة خداعية متكاملة يقودها أنور السادات.

وتقدمت إحدى الشركات الأمريكية بمشروع اتفاقية بترولية مع مصر تقضى بإنشاء خط أنابيب للبترول يبدأ من داخل ميناء الأدبية على خليج السويس، وعندما عرضوا الأمر على الرئيس

السادات أصدر أوامره بالموافقة، وبالفعل وافقت مصر ووقعت أوراق المشروع وصادقت على العقود. وكان ذلك مؤشراً على أن مصر تتوقع فترة سلام طويلة؛ لأن موقع المشروع يدخل فى بؤرة دائرة العمليات العسكرية فى حالة نشوب أية عمليات قتالية.

وفى منتصف سبتمبر وقبل أن يبدأ العد التنازلى للحرب بستة أيام ـ وقعت معركة جوية فوق الأرض السورية تورطت فيها الأسراب السورية، وأسفرت هذه المعركة المشئومة عن سقوط ١٢ طائرة سورية.

وكان رد الفعل الطبيعى أن تقوم سوريا بعمل ما لرد هذه الضربة. وقد حشد السوريون بالفعل قواتهم فى مواجهة العدو، مما جعل إسرائيل تستنتج أن الهدف هو الرد على هذه الضربة بعملية محدودة، لكن الأمر تحول الى تحركات مدروسة ضمن خطة الحشد الرئيسى للحرب الهجومية، واستوجب ذلك تحركات مماثلة محدودة على الجبهة المصرية، ولكن الأيام مرت دون أن يقع شىء مما توقعته إسرائيل.. وبات راسخًا فى الوجدان العسكرى الإسرائيلى أن سوريا قد ابتلعت الضربة ووقفت عاجزة عن الرد.

وأصبحت هذه الواقعة أحد عناصر الخداع التى تؤكد عدم القدرة العربية على القيام بأعمال هجومية.. فضلا عن أنها كانت تغطية ناجحة للتحركات السورية.

وعلى الجبهة المصرية تحولت التحركات العسكرية إلى جزء من الإعداد للمشروع التدريبى الذى عرف باسم مناورات «تحرير

٢٣» والذى سمح باستدعاء بعض قوات الاحتياط ليتسنى لها الاشتراك فى المشروع التدريبى وكانت الإشارات المفتوحة بين القوات تكمل الصورة الخداعية التى كان العدو ضحية لها.

وقد استراحت الدوائر الإسرائيلية كثيرًا لما انتهت إليه قناعاتها من أن العرب غير قادرين على الهجوم وأن مناورات «تحرير ٤١» ليست ذات بال وأن السوريين قد استكانوا بعد سقوط ١٢ طائرة لهم فى معركة جوية واحدة ولم يعد أمامهم سوى التحركات العسكرية التظاهرية التى ليس وراءها سوى إنقاذ ماء الوجه ظاهريًا.

ولعب جواسيس إسرائيل فى مصر دورًا مكملاً فى خطة الخداع الاستراتيجى، وكانت جميع التقارير والمعلومات التى ينقلها جواسيس إسرائيل إلى قادة الموساد فى تل أبيب تؤكد عدم قدرة مصر على القيام بأى عمل هجومى.

وأوضح مثال لذلك الجاسوسة الأمريكية فى القاهرة التى كانت ترأس شبكة محدودة للتجسس على الخبراء السوفييت فى مصر، وتكشف أمر هذه الجاسوسة قبل عام كامل من الحرب.

والجاسوسة الأمريكية اسمها «سو آن هاريس» وكانت تعمل فى قسم رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة حيث كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع الولايات المتحدة، وكان يعمل مع «الآنسة سو آن» شاب مصرى من أصل يونانى اسمه «طناشى راندو بولو» حرص على إقامة علاقة صداقة قوية مع بعض الخبراء

السوفييت، واستطاع طناشى أن يجمع معلومات كثيرة من صديق له من الخبراء السوفييت اسمه «بيليكوف» ظل يعمل فى القاعدة الجوية المصرية لمدة عامين وكان على اتصال دائم بالجاسوس طناشى، وعندما عاد «بيليكوف» إلى بلاده قدم إلى «طناشى» خلفه «فيكتور» ومساعده «يورى».

واستطاع الجاسوس طناشى أن يدخل إلى القاعدة بواسطتهما ويتجول داخلها وينقل المعلومات إلى الآنسة «سو» فى مبنى القنصلية الأمريكية بالقاهرة.

ومن أهم المعلومات التى قدمها طناشى إلى الجاسوسة الأمريكية أن الطائرات المصرية داخل مخازن خرسانية لوقايتها من الهجمات المعادية وأن الفكر الدفاعى يسيطر على العاملين بالقوات الجوية المصرية، وقللت تقارير طناشى كثيراً من قيمة أجهزة الرادار المصرية ونقل إلى الجاسوسة الأمريكية تأكيدات الخبراء السوفييت عن وجود أجهزة رادار فى روسيا تتفوق كثيراً على الأجهزة التى حصلت عليها مصر.

وأهم فقرة فى آخر تقرير قدمه الجاسوس عن مصر قبل القبض عليه تقول:

«إن المصريين غير مستعدين وغير قادرين وغير جاهزين للحرب.. وقد يمر وقت طويل جداً قبل أن يصبحوا قادرين على استئناف القتال من جديد». ونقل الجاسوس هذه التأكيدات أكثر من مرة على لسان أصدقائه من الخبراء السوفييت العاملين فى مصر».

وتم القبض على طناشى وعلى الجاسوسة الأمريكية ـ سو آن هاريس ـ وأكدت التحقيقات أن هذه المعلومات كانت تنقل إلى الولايات المتحدة أولاً بأول، وأنه من المؤكد أنها كانت تجد طريقها إلى تل أبيب فى إطار اتفاقيات التعاون فى مجال المعلومات.

وتم استدعاء الجنرال «أوكينيف» ـ كبير المستشارين الروس فى مصر ـ وتم إبلاغه بالأمر وبتعليمات الرئيس «أنور السادات» بعدم إثارة الموضوع بصورة علنية وترك الأمر للسوفييت ليعالجوه بطريقتهم والتصرف مع الأفراد الذين قاموا بتسريب هذه المعلومات مع اتخاذ الإجراءات المناسبة التى تضمن عدم تكرار مثل هذا الحادث.

وقبل أن يمضى أسبوع واحد على القبض على الجاسوسة الأمريكية وعميلها طناشى أصدر الرئيس «أنور السادات» أمراً بالإفراج عنها وترحيلها إلى بلادها.

لعبة السادات المفضلة
خدعت موشى ديان

على الصعيد الخارجى بدأت إسرائيل مع بداية أكتوبر ٧٣ تواجه مشكلة كبيرة ترتبت على قيام الحكومة النمساوية بإغلاق معسكر استقبال المهاجرين اليهود فى منطقة «شنو»، وكان هذا المعسكر يستقبل يهود الاتحاد السوفيتى وينظم نقلهم إلى إسرائيل، وتعرض القطار النمساوى - الذى ينقل المهاجرين السوفييت إلى المعسكر لهجوم فدائى فلسطينى أسفر عن اختطاف عدد من الرهائن.

وبإغلاق هذا المعسكر تفجرت مسائل دبلوماسية وسياسية فى مواجهة إسرائيل تكاملت معها حملات إعلامية عربية وعالمية ضد السوفييت وإسرائيل معًا. واستوجب ذلك قرار الحكومة الإسرائيلية سفر رئيسة الوزراء للاجتماع مع المستشار النمساوى فى فيينا، وكان ذلك قبل موعد الحرب بأيام لتعود من رحلتها قبل الحرب بساعات.

وعلى الصعيد الداخلى كانت الاستعدادات لانتخابات الكنيست - البرلمان الإسرائيلى - على أشدها، فقد كان من المقرر أن تجرى عملية التصويت فى نهاية أكتوبر ٧٣.

وعلى الصعيد العسكرى جرت قبل ذلك تنقلات وتعيينات عكست الصراعات الخفية داخل المؤسسة العسكرية فى إسرائيل وكان أفضل ما أسفر عنه ذلك هو إبعاد الجنرال «ياريف» عن إدارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية وتعيين الجنرال «زائيرا» بدلاً منه، وكان «زائيرا» من المؤمنين باستحالة عبور قناة السويس بأية قوات عسكرية مهما بلغ حجمها ومهما كان تسليحها.

وقد أمضى «زائيرا» فى موقعه فترة كافية قبل بداية العبورمما جعل إيمانه باستحالة الحرب ينعكس على معظم العاملين معه من ضباط المخابرات العسكرية الإسرائيلية.

وساعد ذلك كثيرًا على تورط العدو الإسرائيلى فى استنتاجات خاطئة بشأن التحركات التى كانت تجرى غرب القناة. لقد رآها العدو، لكنه أبدًا لم يفهمها.

كانت القوات تتحرك أثناء الليل فى اتجاه الجبهة، وكانت بعض عناصرها تنسحب نهارًا ثم تعود ليلاً إلى مواقعها المجهزة والمعدة لها والتى انسحبت منها صباحًا، وكانت حشود المدفعية والدبابات تتخذ ستارًا وراء الكتل الرملية والسد الترابى الذى اتخذ شكل الاستحكامات الدفاعية فى مواجهة الضربات الإسرائيلية، وكانت الإشارات اللاسلكية المتبادلة بين الوحدات العسكرية المتحركة تدخل جميعها فى إطار المشروع التدريبى «تحرير ٤١» والإعداد لمراحله المختلفة.

وظل أسلوب الحشد العسكرى المصرى غرب القناة يلتزم بالشكل الدفاعى الذى يخدم الخطة الهجومية ويؤكد فى الوقت

نفسه عناصر الخداع للعدو، وهذا الأسلوب فى الحشد يعد من أصعب الأعمال العسكرية وأكثرها تعقيدًا فضلا عن عدم مسايرته لما هو معروف من قبل عن العقيدة العسكرية المطبقة فى مصر.

وجاءت الخطة الهجومية لتعتمد على قيام فرق مشاة باقتحام المانع المائى لقناة السويس طبقًا للقطاع المحدد لكل وحدة، وتم تحديد هذه القطاعات فى الخطة الهجومية ضمن الحدود المقررة لكل وحدة فى خطة الدفاع أى فى القطاع المكلفة بالدفاع عنه.

وأدى ذلك إلى استبعاد تحركات كثيرة قد يستلزمها الحشد الهجومى، مما يساعد على عدم استطاعة العدو رصد الأوضاع الهجومية للقوات المصرية، واستمرار قناعته بالموقف الدفاعى المصرى.

ويكتمل هذا الخداع بالتعديل الذى تم إدخاله على نظم التعبئة واستدعاء الاحتياط وتكرار عمليات الاستدعاء مرات عديدة يعقبها تسريح من تم استدعاؤهم.

ولم يكن من الصعب على العدو أن يرصد استدعاء الاحتياط فى مصر وكل أشكال التعبئة، وهو ما كان يقوم فعلاً برصده وتحليله، وقد ظلت القيادة العسكرية الإسرائيلية تتلقى معلومات كاملة عن استدعاء الاحتياط فى مصر ثم تسريحهم، وخلال الأشهر العشرة التى سبقت الحرب رصدت القيادة الإسرائيلية ٢٢ استدعاءً لقوات الاحتياط المصرية.

ووجد ذلك ردود فعل سريعة لدى العدو الذى كان يبدأ فى وضع خطة التعبئة الإسرائيلية موضع التنفيذ ويشرع فى تنفيذ الحشد ليسفر فى النهاية عن لا شىء.

ويصف وزير الدفاع الإسرائيلى ـ موشى ديان ـ هذا السيناريو بأنه «لعبة السادات المفضلة» ويقول: إن لعبة استدعاء الاحتياط أصبحت اللعبة المفضلة لدى المصريين لأنهم يعرفون أن القوات الإسرائيلية الضاربة تعتمد بصورة أساسية على الاحتياط وأن تعبئة قوات الاحتياط فى إسرائيل تكلف الميزانية ملايين الدولارات فى كل مرة وتؤدى إلى شبه شلل كامل فى الحياة المدنية حتى تكاد الشوارع ومواقع العمل تخلو من الناس ومعهم معظم سيارات النقل العاملة فى القطاعات المدنية.

ويؤكد هذا المعنى نفسه الجنرال زائيرا ـ مدير إدارة المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذى تولى هذا المنصب بعد الجنرال ياريف ـ ويعبر الجنرال زائيرا عن رفضه لاستدعاء أية قوات احتياط إسرائيلية كرد فعل للتعبئة المصرية قائلا: «إننا نرفض الرقص فى كل مرة على أنغام المصريين».

ولم يعد الإسرائيليون يأخذون ما يجرى فى مصر مأخذ الجد، وتميزت ردود أفعالهم بالتردد حتى أنهم لم يتحركوا أمام الاستدعاء رقم «٢٠» لقوات الاحتياط فى مصر والذى تم قبل بدء مناورات الخريف، وتكرر ذلك أكثر من مرة خاصة مع الاستدعاء رقم «٢٢» الذى سبق المشروع التدريبى المصرى المعروف باسم «تحرير ٤١» وأعقبه بعد ذلك الاستدعاء رقم «٢٣»

لقوات الاحتياط الذى كان يبدو بصورة أقل جدية وبأنه مجرد استدعاء للتدريب المعتاد وضمن «لعبة السادات المفضلة» حسب تعبير الوزير الإسرائيلى.

وكان هذا الاستدعاء المصرى يحاط بالكثير من إجراءات التعمية والخداع، مثل فتح باب سفر العسكريين للخارج وتنظيم مسابقات ثقافية ودينية لأفراد القوات المسلحة ورصد جوائز مالية كبيرة لحفظة القرآن بين الجنود وإعداد رحلات متتالية لأداء العمرة للضباط والجنود تم تحديد مواعيدها طوال شهر رمضان ١٣٩٣ هـ دون أن يعرف أحد أن العد التنازلى للحرب سيبدأ قبل بداية رمضان وأن اقتحام قناة السويس سيتم قبل العاشر من رمضان.

وفى هذا المناخ العام تم الاستدعاء رقم ٢٣ وكان هو استدعاء حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

وطلب الرئيس «السادات» تقارير من جميع الجهات المختصة عن ردود فعل إسرائيل أمام ما يجرى على الجبهة المصرية، وجاءت التقارير من المخابرات الحربية والاستطلاع ومن المخابرات العامة ومن وزارة الخارجية ومن هيئة الاستعلامات.

وجلس الرئيس «أنور السادات» يدخن غليونه ويستمع إلى ملخص ما جاء فى تلك التقارير، وبدأ يطمئن.. أن العدو يخدع نفسه أكثر مما نخدعه.

ووضح ذلك فى اجتماع إدارة العمليات الإسرائيلية فى سبتمبر ٧٣ عندما عكف قادة العدو على دراسة عمليات استدعاء

الاحتياط المصرى ثم تسريحه وارتباط ذلك بتحرك وحدات متعددة غرب القناة مع ظهور عربات كبارى ومعدات عبور موانع ضمن مهمات وتجهيزات القوات المصرية غرب القناة.

وفى ذلك الاجتماع درس القادة الإسرائيليون احتمالات الحرب، ومدى الاحتياجات الهندسية لإتمام عملية عبور محدودة، وتحدث الجنرال اليعازر عن الاحتياجات الهندسية للمصريين من أجل عملية عبور محدودة فى قطاعات معينة، وقال: إن هذه الاحتياجات لا تتوافر لأى جيش فى العالم. وأكد ذلك الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى قائلا: «إذا أراد المصريون عبور قناة السويس فيلزمهم سلاح المهندسين الأمريكى وسلاح المهندسين السوفيتى ـ مجتمعين ـ لمساعدتهم على ذلك.

وهذا الكلام الذى تردد فى اجتماع القادة الإسرائيليين قبل العبور بأسابيع قليلة عكس ثقة الجنرال إليعازر يومها، وجاء ذكره فى يومياته التى نشرها بعد معركة العبور بعدة أشهر.

وفى هذا الاجتماع أشاد كبار الضباط الإسرائيليين بمعدات قذف كميات كبيرة من السوائل الملتهبة من تحت سطح الماء فى القناة لتطفو فوق السطح ويتم إشعالها لتتحول القناة إلى بحر من اللهب، وتعرضوا للآثار النفسية الكبيرة لذلك بالإضافة إلى عجز الأفراد عن العبور فوق نيران مشتعلة.

وبينما كان هذا الحديث يدور فى قاعة الاجتماعات الرئيسية بوزارة الدفاع كان ضباط\هيئة العمليات المصرية

يعدون للمفاجآت المضادة التى تكمل خداع العدو الذى خدعه اطمئنانه.

كان التصور الأول لمواجهة النيران المشتعلة فوق سطح القناة هو نزول وحدات صغيرة من أفراد داخل مركبات برمائية. وينتشر الأفراد على أجناب كل مركبة ويحمل كل فرد واحدة من سعف النخل المعرف باسم «الجريد» ليضرب بها النيران المشتعلة حتى تتحول إلى جزر من اللهب يسهل إطفاؤها، وفشلت التجارب ولم ينجح الجنود أثناء التدريب فى مواجهة النيران بسعف النخل رغم أن كميات السوائل المشتعلة كانت أقل من المتوقع مواجهته خلال العبور الفعلى، وتم إعادة التجربة باستخدام مواد اطفاء كيماوية، واستلزم ذلك جهداً ووقتاً جعل العمليات تتحول من معركة عسكرية وعبور لمانع صعب إلى عملية إطفاء حريق أشعله العدو فوق القناة وحاولنا نحن أن نطفئه.

وعلى ضوء نتائج هذه التجارب المتكررة تقرر أن تكون الخطة هى حرمان العدو من استخدام هذا السلاح الجهنمى بخداعه وإيهامه بصلاحية هذا السلاح ومفاجآته بتجهيزات معطلة تخرج سلاح الحريق من المعركة قبل بدايتها.

وتم عقد اجتماع ضم قائد القوات الخاصة وقائد الضفادع البشرية ومدير سلاح المهندسين وأحد ضباطه ومدير التخطيط بهيئة العمليات، وتم فى هذا الاجتماع استعراض كل التجارب والمحاولات المعدة لمواجهة إشعال العدو للحرائق فوق سطح القناة ونتائج التجارب التى أجريت فى أكثر من موقع، وتم خلالها

استخدام عشرات الأطنان من السوائل المشتعلة التى تمثل نوعًا من أنواع النابالم - أقل كثافة من مياه القناة - لضمان الطفو فوق السطح.

وتقرر وقف كل محاولات إطفاء الحريق والتركيز على حرمان العدو من فرصة استخدام هذا السلاح.

وعلى ضوء المعلومات المتوافرة من الاستطلاع وإدارة المخابرات شرح ضباط المهندسين تفاصيل التجهيزات التى يعتمد عليها العدو، والتى تتكون من ثلاثة أجزاء.. هى خزانات تحت مواقعه الحصينة يسع كل خزان منها ٢٠٠ طن من المواد المشتعلة، والجزء الثانى أنبوبة تصل بين هذه الخزانات وسطح مياه القناة، وأخيرًا معدات السيطرة التى تتولى فتح خزانات «النابالم» وإشعالها ولو تم إفساد أى جزء من تلك الأجزاء الثلاثة فإن العدو سيفشل فى خطته. واستبعد المجتمعون إمكانية تدمير الخزانات بواسطة المدفعية؛ لأنها مدفونة جيدًا فى الرمال، ومعها أنابيب نقل السائل إلى القناة المدفونة أيضًا تحت سطح الأرض، لكن فتحات هذه الأنابيب كانت ظاهرة تحت سطح الماء وكانت قواتنا تراها بوضوح من غرب القناة عندما يكون هناك «جزر» وينخفض مستوى سطح الماء فى القناة، وأصبح الحل هو سد هذه الفتحات قبل العبور خاصة أن أماكنها محددة لدينا، وهناك صور لها بين أيدينا، بالإضافة إلى معلومات تفصيلية قدمها المهندس الإسرائيلى الذى استطاعت دورية مصرية خطفه والعودة به من شرق القناة.

وتم وضع الخطة من ثلاث مراحل: المرحلة الأولى إرسال وحدات خاصة من الضفادع لعبور القناة من تحت سطح الماء والقيام بإغلاق الفتحات وسدها قبل أول ضوء من اليوم «ى» وهو يوم العبور، والمرحلة الثانية هى وضع هذه الخزانات ضمن أهداف تحضيرات المدفعية على أمل النجاح فى ضربها. والمرحلة الثالثة تكون فى بداية المعركة بحيث تظل نقاط عبور القناة فوق اتجاه التيار عند كل خزان حتى إذا نجح العدو فى استخدام هذا السلاح فإن النيران تظل متجهة بعيداً عن الموجات الأولى من عبور الأفراد، وفى جميع الأحوال يتم تأخير نزول الوحدات إلى الماء لفترات تتراوح ما بين ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة بعد ظهور اللهب فوق الماء وتحاشى تأثيرها حتى ينتهى أثرها.. أو تجاهلها فى حالة ضعف تأثيرها.

وقد تحقق النجاح خلال المرحلة الأولى من الخطة واستطاعت القوات الخاصة إغلاق الفتحات وسدها، وكان ذلك مفاجأة للعدو مثلما فاجأته مراحل تعبئة القوات وخطة تحريك معدات العبور.

المنـاورات تتحـول إلـى الخطـة الهجـومية « بـدر»

لقد تم تطوير خطة استدعاء الاحتياطى حتى أن حوالى ٨٠٪ من الأفـراد الـذين يـتم اسـتـدعـاؤهم يـصـلـون فى الـيـوم الأول للاستدعاء، وخلال الشهور العشرة الأولى من عام ٧٣ تم تنفيذ ٢٢ عملية استدعاء لقوات الاحتياط المصرية، وكان الاستدعاء رقم ٢٣ هـو اسـتـدعـاء للـحـرب تم فى إطار اسـتـدعـاء خداعى باعتباره استدعاء للاشتراك فى العمليات التدريبية لمناورات «تحـريـر ٤١» التى تحولت إلى «بدر» وهـو اسم الخطـة الهـجـومية لعبور القناة.

واتفق واضعو خطة الـهـجـوم على أن يتم الـعـبـور بطول قناة الـسـويس وعلى امـتـداد ١٧٥ كيلـو مـتـرًا؛ لأن ذلك سـيـؤدى إلى إضـعـاف أو تجـمـيـد مـصـادر تفوق الـعـدو ويـسـاعـد على خداعه بحيث لا يستطيع اكتشاف الاتجاه الرئيسى لقوات الهجوم ويحرم إسـرائيل من تـركيز جهود قواتها الجوية فى اتجاه مـحـدد، مما يضعف كثيرا من تأثير النشاط الجوى المعادى ويضطرهم الى شن الـهـجـمـات المضادة على جبهـة متسـعـة فى وقت واحـد، كما سـيـؤخـر ردود الـفـعـل لـدى الـعـدو حتى يكتشف اتجاه المجهـود

الرئيسى المصرى وهذا معناه ارتباكه وتأجيل ضرباته المدرعة وإتاحة مزيد من الوقت أمام القوات المصرية التى تعبر القناة.

ومع بداية العد التنازلى لليوم «ى» كانت الوحدات الضاربة تنتشر فى مواقعها بطول القناة، وكانت معدات العبور والجسور والكبارى تتحرك من الغرب إلى الشرق نحو الجنوب ونحو الشمال ورغم أن ذلك يمثل التزاما بالخطة الموضوعة، لكنه أيضا كان يشكل استمرارًا فى الخداع وبات العدو متأكدًا من أن ما يجرى لا يمكن أن يكون إعدادًا لحرب شاملة بطول جبهة تمتد لأكثر من ١٧٠ كيلو مترًا وإنما هو تدريبات لكل الوحدات المصرية المشاركة فى مناورات «تحرير ٤١»؛ لأن ما يتوافر من تجهيزات ومعدات العبور قد يتيح إمكانية العبور فى محور رئيسى أو محورين وهذا يتعارض مع كل ما يجرى غرب قناة السويس.

وهذا ما تداوله المجتمعون فى قيادة الجيش الثانى بالقطاع الأوسط من قناة السويس وفى قيادة الجيش الثالث الميدانى بالقطاع الجنوبى من القناة لقد لاحظوا أن العدو يعرف بتحركاتهم ويتابعها لكنه بالتأكيد لا يفهم معناها.

وكان ذلك وراء الكلمات التى رددها الرئيس أنور السادات فى خطابه فى اليوم «ى - ٨» أى قبل الحرب بأسبوع واحد وحرص خلاله على إتمام دوره فى خداع العدو.

وفى ذلك اليوم احتفلت القوات المسلحة بذكرى الرئيس جمال عبدالناصر وذهب كل القادة وكبار الضباط فى الصباح ليضعوا أكاليل الزهور على قبر الزعيم الراحل وقراءة الفاتحة وتوالى

ظهور القادة أمام عدسات التصوير فى احتفالات مختلفة منها توزيع الجوائز على حفظة القرآن الكريم من أبناء القوات المسلحة وتوديع الفوج الأول من أبناء القوات المسلحة الفائزين بجوائز عمرة رمضان.

وكان هذا يبدو وكأنه عدم جدية من كبار القادة فى الإعداد للمناورات التدريبية التى عرف الجميع أنها ستجرى فى الفترة ما بين أول أكتوبر وحتى ٧ أكتوبر ١٩٧٣ فى حين أن عدداً محدوداً جداً من الأفراد كانوا يعرفون أن يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ سيكون هو «ى +١» أى اليوم الثانى من الحرب.

وكما ظهر كبار القادة أمام عدسات المصورين وكاميرات التليفزيون يحتفلون بالجوائز ويزورون قبر عبدالناصر فقد كانوا جميعًا أمام العدسات وتحت الأضواء فى احتفال الاتحاد الاشتراكى بهذه المناسبة والذى أقيم فى المساء. ووقف الرئيس «أنور السادات» يتحدث عن المشكلات التى ورثها وعن البنية الأساسية التى يعيد بناءها والمرافق المتهالكة التى لابد من تجديدها.

وتحدث بتركيز عن إعادة بناء القوات المسلحة وحرصه على سلامتها وعدم خوض مغامرة عسكرية قبل أن يوفر المعدات الحديثة لأبنائه المقاتلين، وردد العبارة العجيبة التى أدهشت كل المحللين ومنهم ـ أو أولهم ـ المحللون الإسرائيليون وهى عبارة «لن أدفع بأبنائى إلى الحرب قبل أن أضع الإلكترون فى أيديهم».

وعجز عباقرة التحليل عن تصور الواقع على حقيقته، ولم يخطر على بال أحد فى إسرائيل أن هذه الكلمات يرددها الرئيس المصرى فى اليوم «ى ـ ٨» ليلة السبت الذى ستنطلق شرارة الحرب يوم السبت الذى يليه.

وعقب هذا الخطاب خرج الضباط ليتجهوا إلى مقار قيادتهم واتجه كبار القادة إلى مركز القيادة العامة فى نقطة العمليات الرئيسى لمتابعة حركة العد التنازلى إلى أن يحل اليوم «ى» الذى سينضم فيه الرئيس السادات إليهم.

وبدأت التمامات تصل من كل مكان..

وجاء التمام بوصول وحدات إصلاح الممرات إلى كل القواعد الجوية مزودة بالخلطة الجديدة التى توصل إليها العلماء المصريون، وهذه الخلطة بدأ إعدادها داخل معامل وزارة البحث العلمى بالاشتراك مع سلاح المهندسين منذ ستة أشهر توصلوا بعدها إلى مزيج من الأسفلت والأسمنت سريع التصلب بنسبة معينة، وهذه الخلطة ثبت نجاحها فى إصلاح ممرات الطائرات بسرعة قياسية يسترد بها المطار كفاءته عند قصف الممرات بواسطة طائرات العدو مما يتيح لطائراتنا الانطلاق بينما العدو يتصور أنه أخرج هذه القاعدة من المعركة لمدة يوم كامل.

وأبلغت فرق التعامل مع القنابل الزمنية والشراك الخداعية بوجودها فى المواقع المحددة لها بما فى ذلك المطارات، وهذه الفرق مزودة بأجهزة متقدمة للتعامل مع القذائف والقنابل التى

لم تنفجر ومعها أوامر مستديمة بالتعامل الفورى مع هذه القذائف والقنابل الموقوتة لإبطال مفعولها دون تفجيرها أو انتظار انفجارها ولم يعبأ أحد بالخطر الذى يتوقعه نظرًا لاعتماد العدو على الأثر النفسى للقذائف الموقوتة والشراك الخداعية، واستطاع رجال هذه الفرق تجاوز كل الآثار النفسية بروح فدائية.

وتلقت القيادة ما يفيد وصول فرق إصلاح الطرق إلى نقطة تمركزها ومعها ألواح الصلب التى تم ابتكارها للاستخدام فى إصلاح الطرق التى تتعرض للقذف الجوى أو لقصف المدفعية، كما تم الإبلاغ عن وصول وسائل التحرك من نقاط تمركز هذه الفرق إلى أى مكان يحتاج إلى إصلاح الطريق منه وإليه، ويبلغ مجموع أطوال هذه الطرق التى تغطيها فرق الإصلاح ٢١٠٠ كيلو متر تمتد شرقًا وغربا وجنوبًا وشمالاً بما يزيد ثلاثين مرة على طول قناة السويس نفسها وصدرت الأوامر بتحريك المعدات ومهمات العبور فى اتجاه نقاط العبور لتكون جاهزة للنزول إلى الماء مع الساعة صفر.

وتلقت القيادة الرقم النهائى بوجود قوارب جاهزة لحمل الأفراد إلى الضفة الشرقية وبعض من هذه القوارب تم تصنيعها محليا وتم استيراد النصف الآخر من الاتحاد السوفيتى على مراحل.

وخرجت من المخازن وورش المهندسين سلالم الحبال وزلاقات الصاج لتكون فى أماكنها بين أيدى الجنود.

وشملت التمامات الصاعدة من قيادة إلى أخرى الانتهاء من نقل المدافع الخفيفة المضادة للدبابات والرشاشات المتوسطة المضادة للطائرات وصناديق الذخيرة وسائر الأسلحة والمعدات التى ستنقل إلى الضفة الشرقية للقناة خلال الساعات الأولى للمعركة.

واتخذت الطلمبات التوربينية التى تعمل بالوقود العادى مواقعها بمعدل ثلاث طلمبات لكل ممر سيتم فتحه فى الساتر الترابى شرق القناة طبقًا لخطة تحرك وحدات العبور التى تساندها ٨٠ وحدة مهندسين.

وفى الساعة الثامنة من صباح «ى ـ ٥» الموافق أول أكتوبر ١٩٧٣ تم رفع حالة الاستعداد الكاملة وصدرت أوامر القيادة العامة بوجود القيادات داخل مراكز السيطرة والقيادة على مختلف مستوياتها وذلك ضمن الإجراءات التى تستلزمها أغراض التدريب لتنفيذ المشروع الاستراتيجى التعبوى «تحرير ٢٣».

وتحت ستار التدريب استمرت القوات البرية فى تنفيذ إجراءات التحضير للعملية الهجومية وإعادة التجميع والفتح التعبوى، وتم رفع كفاءة التجهيز الهندسى لمسرح العمليات تحت ستار تحسين الدفاعات.

وبدأ فتح وحدات الأسطول المصرى من المدمرات والغواصات لتأخذ أوضاعها الأخيرة فى القطاعات المحددة لها، بما فى ذلك وحدات الأسطول التى تحركت تحت ستار الزيارة الودية للموانئ الصديقة فى الهند.

وكان هذا التحرك حلقة مهمة فى سلسلة الخداع.

لقد كان من المقرر إغلاق الطريق البحرى إلى ميناء إيلات الإسرائيلى مع بداية العمليات باعتباره الطريق الرئيسى لإمداد إسرائيل بالبترول من إيران.

وكان من المستحيل تحقيق ذلك فى منطقة شرم الشيخ والمدخل الجنوبى لخليج العقبة لأنه فى يد العدو الإسرائيلى منذ عام ١٩٦٧ ويقع تحت سيطرته التامة وأمر الرئيس «السادات» بإتمام إغلاق المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند مضيق باب المندب جنوب اليمن وبدأ تنفيذ ذلك تحت ستار زيارة ودية للموانئ الهندية.

وتحركت الوحدات البحرية الموجودة فى السويس بعد أن أعلنت الهند عن زيارة مقررة لبعض قطع الأسطول المصرى واتجهت القطع المصرية نحو الجنوب لتعبر باب المندب وتدخل المحيط الهندى.

وقبل بدء العمليات وعندما حل اليوم «ى» دخلت قطع الأسطول المصرى إلى المضيق وأعلنت إغلاق الطريق البحرى إلى إسرائيل ومنع مرور ناقلات البترول المتجهة فى البحر الأحمر إلى إيلات لتعويض البترول الذى تستهلكه إسرائيل خلال العمليات الحربية.

وتلقت غرفة العمليات ما يفيد إغلاق طريق إمداد إسرائيل بالبترول الإيرانى والذى كان يصل إلى ١٨ مليون طن سنويا يعاد تصدير بعضه إلى أوروبا، وكان ضمن بلاغات التمام الصادرة عن القوات البحرية المصرية بث الألغام فى خليج السويس وإغلاقه أمام النشاط البحرى المعادى.

وهكذا كانت الحرب قد بدأت بالفعل بالنسبة لبعض الوحدات قبل ساعة الصفر بخمسة أيام عندما وقفت قطع البحرية قرب مضيق باب المندب جنوب البحر الأحمر وخرجت الغواصات المصرية من قواعدها فجر اليوم الأول من أكتوبر ١٩٧٣ لتتخذ أوضاع القتال أمام سواحل سيناء.

وكانت الأوامر تقضى بفرض الصمت اللاسلكى الكامل على هذه الوحدات البحرية لحين صدور إشارات خاصة إليها ـ لن تصدر إلا بعد ساعة الصفر.

وكان للوحدات البحرية دور رئيسى فى خطة الخداع لقد كان عليها أن توجه ضربات مركزة من البحر إلى مراكز قيادة العدو ونقاط سيطرته شرق بورفؤاد فى بالوظة ورمانة مع تمثيل عمليات إنزال من البحر يكملها هجوم من معبر شمال القنطرة، وكان ذلك كفيلاً بإيهام العدو بأن هذا هو أحد المحاور الرئيسية للهجوم المصرى.

وكانت هناك تمثيلية مشابهة تم الإعداد لها شرق البحيرات بواسطة اللواء البرمائى الذى سيعبر البحيرات ويتجه شرقا نحو منطقة المضايق، مما يوحى بوجود محور رئيسى للهجوم، ومن هذا المحور الخادع تنطلق سرية ميكانيكية برمائية مع عدد من الدبابات فى اتجاه ممر متلا وسرية أخرى فى اتجاه مضيق الجدى لتبث الذعر فى مواقع العدو وتضعف سيطرته على قواته وتعود بعد ذلك لتنضم إلى وحداتها الرئيسية شرق القناة.

وأبلغت قوات الصاعقة عن تمام استعدادها للانتقال جوًا إلى

عمق العدو لعرقلة طلائع الهجوم المضاد بعد اتمام عمليات العبور.

وبثت وكالات الأنباء من رومانيا ومصر خبرًا عن قيام وزير الدفاع الرومانى بزيارة رسمية إلى مصر، وكان ضمن جدول الزيارة الرسمى اجتماعه بوزير الحربية المصرى يوم الإثنين ٨ أكتوبر ١٩٧٣ وحضور مأدبة عشاء رسمية ثم مقابلة الرئيس «أنور السادات»، ونشر هذا الخبر فى كل الصحف ونشرت جريدة «الأهرام» خبرًا آخر عن تعليمات من وزير الحربية بشأن إعداد سجل لتسجيل أسماء الضباط الراغبين فى أداء العمرة فى رمضان.

وفى نيويورك كانت تجرى أحداث تبدو عادية لكنها لعبت دورها فى الخديعة، لقد كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تعقد جلساتها فى نيويورك، وكان وزير خارجية مصر يرأس وفد مصر فى هذه الاجتماعات وتلقى الوزير المصرى رغبة وزير الخارجية الأمريكى الاجتماع به فى نيويورك على هامش اجتماعات الجمعية العامة يوم الجمعة الخامس من أكتوبر ليناقش معه الموقف العام فى الشرق الأوسط.

واتخذ الرئيس «السادات» قرارًا بعدم إبلاغ وزير الخارجية بموعد الهجوم المصرى وتكليفه بمناقشة المبادرات السلمية المتوقعة مع وزير خارجية أمريكا ومحاولة إقناعه ببذل المزيد من الجهد فى سبيل الحل السلمى.

ولم يكن أحد غير السادات يستطيع أن يخفى قرار الحرب عن

وزير خارجية مصر وأن يطلب من وزير خارجيته البحث عن تحرك سلمى، بينما الحرب ستشتعل بعد ساعات.

لكنها الخديعة وبات السادات يشعر بأن أحدًا لا يعرف حقيقة ما يجرى، لكن تفاؤله بنجاح خطة الخداع لم يكن كاملاً.

لغــز
الســاعة «س»

ظهرت علامات وبوادر وتحركات تشير إلى أن إسرائيل تعرف أن الحرب على وشك أن تندلع وأن المصريين استعدوا لعبور القناة.

ولحسن الحظ كانت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير فى أوروبا.

وعندما هبطت طائرة جولدا مائير فى مطار بن جوريون مساء يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر ١٩٧٣ قادمة من فيينا وجدت رئيسة الوزراء فى انتظارها تقريرا يتضمن تفاصيل المعلومات التى سبق إبلاغها بها خلال زيارتها للنمسا.

كان الهدف من التقرير إقناع رئيسة الوزراء بمناقشة فكرة استدعاء الاحتياط الإسرائيلى وكانت فى قرارة نفسها تعارض الفكرة من أساسها دون أن ترفض فكرة المناقشة وكان شاغلها الأول فى هذا اليوم هو إصرار المستشار النمساوى الدكتور «برونو كرايسكى» على إغلاق مركز استقبال المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتى والمقام فى قلعة «شونو» قرب فيينا والتى يتنقل

منها المهاجرون اليهود بالأتوبيسات إلى المطار ليستقلوا طائرات شركة «العال» إلى إسرائيل.

وفى النمسا كانت «جولدا مائير» قد استقبلت حامل التقرير الوزير «يزرائيل جاليلى» يوم الإثنين أول أكتوبر وقال لها: إنه اجتمع مع موشى ديان وبحث معه ضرورة مناقشة الموقف فى الجولان وأكدت «جولدا مائير» أنها ستفعل ذلك فور وصولها فى الغد إلى تل أبيب.

لكن الاجتماع انعقد صباح الأربعاء ٣ أكتوبر ولم يخطر ببال أحد من المجتمعين أن هذا اليوم «ى - ٣» أى قبل الحرب بحوالى ٧٠ ساعة.

ضم الاجتماع وزير الدفاع الإسرائيلى موشى ديان والجنرال ديفيد إليعازر رئيس أركان القوات الإسرائيلى الشهير بلقب «دادو» ويزرائيل جاليلى وزير الدولة ومستشار رئيسة الوزراء والجنرال ايلى «زائيرا» مدير المخابرات الحربية «لوكادرا» ولم تستطع رئيسة الوزراء «جولدا مائير» تجاهل الحديث عن رحلتها الفاشلة إلى النمسا وقالت: إن الهجوم الذى شنه الفلسطينيون على القطار النمساوى الذى ينقل المهاجرين اليهود دفع المستشار كرايسكى إلى إغلاق معسكر «شنو» ووقف استقبال يهود الاتحاد السوفيتى ونقلهم إلى إسرائيل.

وتدخل «دادو» وهو رئيس الأركان «ديفيد إليعازر» ليفرض على المجتمعين العودة إلى الموضوع الرئيسى فى جدول أعمال هذا الاجتماع.

قال إليعازر: «إن الموقف على الجبهتين المصرية والسورية لا يمثل خطورة ومن المستبعد وقوع هجوم مصرى - سورى مشترك لقد قام السوريون بحشد قوات إضافية على الجبهة منذ المعركة الجوية التى سقطت فيها ١٢ طائرة، لكنهم لم يتمكنوا من القيام بهجوم منفرد، أما الجبهة المصرية فتشهد حلقة من حلقات تحركاتها المستمرة طوال العام وهى تقوم بمناورتها السنوية التى تشمل نقل قوات مختلفة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق.. وبالعكس».

ولا نوصى بالموافقة على استدعاء قوات الاحتياط.

وتحدثت «جولدا مائير» عن تجاربها السابقة مع المصريين.

وقالت: «لا نريد أن نكرر تجربة شهر مايو الماضى لقد سجلنا يومها تحركات مصرية واسعة، وتم رصد العديد من معدات العبور والكبارى المحمولة وهى تنقل من العمق إلى الجبهة المصرية وتلقينا معلومات وثيقة عن تحركات معدات العبور على الطريق القريب من مطار القاهرة اتجاه السويس، قالت أجهزة مخابراتنا إن الحرب لن تندلع من جديد وأن المصريين غير قادرين على عبور القناة لا الآن ولا مستقبلا، ورغم ذلك فقد قررنا يومها أن نأخذ الأمر بجدية وانتقلت بنفسى ومعى عدد من الوزراء ومعنا «حاييم بارليف» وزير الصناعة إلى المركز الرئيسى للمخابرات العسكرية لنناقش تفاصيل الموقف ونعد للتعبئة، ولكن شيئا لم يحدث، وما نراه الآن على الجبهة المصرية أقل مما تم رصده فى مايو الماضى وما دام أحد لم يطلب التعبئة فإننى أيضا لم أفكر فيها.

وسيعقد مجلس الوزراء الإسرائيلى اجتماعه المعتاد بعد ثلاثة أيام يوم الأحد ٧ أكتوبر عقب إجازة العيد وسنواصل يومها بحث الموقف بكل أبعاده وتطوراته اللاحقة.

وبينما كان المجتمعون يغادرون مكتب رئيسة وزراء إسرائيل كانت أحداث اليوم «ى ـ ٣» تتلاحق داخل مراكز القيادة والسيطرة على الجبهة المصرية مع إتمام الحشد على محاور الجيشين الميدانيين الثانى والثالث.

واستكملت وحدات المهندسين استعداداتها لفتح الثغرات فى الساتر الترابى بحجم ١٥٠٠ متر مكعب لكل ثغرة وإنشاء كبارى ثقيلة لعبور الدبابات والمدفعية الثقيلة وكبارى خفيفة تماثل تماما فى شكلها الكبارى الثقيلة ولكن الهدف منها جذب نيران العدو وخداعه وصرف انتباهه عن مناطق العبور الرئيسية بالإضافة إلى كبارى اقتحام لعبور المشاة صنعتها إدارة المهمات المصرية، كما تم تجهيز للمشاة مع معديات عبور، وأصبح من المتوقع الانتهاء من فتح الثغرات وتشغيل المعديات الساعة «س + ٥» وقد تتأخر فى بعض المواقع بفعل نيران العدو لتصل إلى «س + ٧» أى الساعة التاسعة مساء السبت ٦ أكتوبر.

وفى ذلك اليوم ـ يوم الأربعاء ـ ٣ أكتوبر ١٩٧٣ ـ وهو اليوم «ى ـ ٣» هبطت طائرة عسكرية فى إحدى القواعد الجوية السورية قرب دمشق، وكان عدد ركابها اثنين فقط هما وزير الحربية المصرى رئيس أركان القيادة المصرية ـ السورية الاتحادية. ونقلتهما سيارة مرسيدس تحمل أرقاما مدنية

«خصوصى» إلى الاستراحة القريبة من المطار ليكون فى انتظارهما وزير الدفاع السورى.

وسر هذا الاجتماع يرجع إلى رغبة القيادة السورية تأخير اليوم «ى» لمدة ٤٨ ساعة لاستكمال الحشد وتهيئة الجبهة الداخلية للحرب، والانتهاء من تفريغ صهاريج البترول فى مصفاة التكرير بمدينة حمص، لكن المناقشة أسفرت عن بقاء اليوم «ى» هو السبت السادس من أكتوبر باعتباره أنسب الأيام لتحقيق المفاجأة واستغلال إجازة يوم الغفران، «عيد كيبور» عيد اليهود بالإضافة إلى أن الحرب كانت قد بدأت فعلا بالنسبة لبعض الوحدات المصرية ومنها الغواصات والقطع البحرية التى غادرت قواعدها مع فرض الصمت اللاسلكى عليها واستحالة الاتصال بها.

وعاد وزير الحربية المصرى إلى القاهرة ليجد مفاجأة فى انتظاره، لقد تبين أن شركة «مصر للطيران» قامت بإلغاء رحلاتها الجوية وبدأت فى تنفيذ إخلاء طائراتها من مطار القاهرة، كما أصدرت تعليمات لطائراتها فى الخارج بالبقاء حيث هى وعدم القيام برحلاتها المقررة إلى القاهرة.

وغضب الرئيس السادات لذلك أشد الغضب خاصة أن تعليماته كانت وراء ذلك، لكن وزير الطيران أساء فهمها ويرجع هذا التصرف لسوء فهم للتعليمات التى وجهها الرئيس «السادات» لعدد من الوزراء - بينهم وزير الطيران المدنى - بشأن الاستعداد لأى احتمالات مفاجئة قد تقع بين لحظة وأخرى وقد لاحظ وزير الطيران تصاعد حالة الاستعداد وتوقع باجتهاده

الشخصى أن تقوم إسرائيل بضربة مفاجئة وقائية على غرار ما حدث عام ٦٧ واستصوب حماية طائراته من التدمير.

وفى اتصال عاجل بين وزير الحربية ووزير الطيران تم تدارك الموقف وإلغاء تعليمات وزير الطيران وعادت حركة الطائرات إلى حالتها الطبيعية بعد خمس ساعات من التوقف الذى أربك حركة المسافرين وحشد الركاب فى قاعات الانتظار.

ولن يكن لذلك أى انعكاس أو رد فعل فى إسرائيل التى لم يتغير الموقف فى تصورها عما كان فى اجتماع رئيسة الوزراء واستمرت حالة الترقب المعتادة حتى اختلف الأمر فى اليوم التالى.

وبينما كان العسكريون يضعون اللمسات الأخيرة فى خطة الخداع والتمويه كان الرئيس «السادات» يضع اللمسات الأخيرة فى الخطة السياسية، واستقبل يومها مستشار الأمن القومى «حافظ إسماعيل» الذى أطلعه على مسودات البيان الذى سيلقى باسم مصر فى مجلس الأمن عند انعقاده المتوقع بعد نشوب الحرب، وكذلك التعليمات التى سيتم إبلاغها إلى وزير الخارجية «محمد حسن الزيات» الموجود فى نيويورك والذى لم يعرف بعد شيئًا عن الحرب التى توشك أن تقع.

وتم تجهيز قصر الطاهرة ليكون مقرًا للقيادة السياسية أثناء الحرب.. وبدأ الرئيس «السادات» يستعد للانتقال إليه وأخّر الرئيس «السادات» انتقاله إلى هناك عندما تلقى طلبًا عاجلا من السفير السوفييتى فى القاهرة بطلب مقابلته وتمت المقابلة فى

السابعة مساءً، وقدم خلالها السفير رسالة من الرئيس برجينيف يطلب فيها سحب المستشارين المدنيين وأسرهم من مصر وكان ذلك موضع استياء الرئيس «السادات» لكنه لم يستطع رفضه.

وفى اليوم التالى وصلت بالفعل ست طائرات سوفيتية لتنقل المستشارين وأسرهم إلى بلادهم وتكرر ذلك فى سوريا وعرف به العدو الإسرائيلى واستطاع أن يكسر بواسطته حلقات الخداع مستشعرًا الخطر بصورة جدية ولأول مرة، وعندما كان المستشارون السوفييت وأسرهم يتجهون إلى المطار كان الرئيس «السادات» يتجه إلى قصر الطاهرة ليخلع ملابسه المدنية، ويرتدى الزى العسكرى للقائد الأعلى للقوات المسلحة، لكنه لم ينتقل إلى المركز الرئيسى للقيادة إلا ظهر اليوم «ى» السادس من أكتوبر ومن داخل الموقع تمت مراجعة خطة أولويات العبور طبقًا للأسبقيات المقررة وبدأ مع يوم الجمعة ٥ أكتوبر «ى - ١» وضع العلامات والأرقام الإرشادية على النقاط المقررة للعبور، والتى ستتم إضاءتها بالأضواء الملونة مساء السبت بعد آخر ضوء لليوم «ى».

ومع هذه المرحلة بدأ العدو يفهم ما يجرى على الجبهة المصرية وبدأت آثار الخداع تزول تدريجيًا.. لكنه لم يتوقع ساعة الحرب وبقيت الساعة «س» لغزًا بالنسبة له.

كانت أولويات العبور تقضى بتقسيم وحدات المشاة المكلفة بالعبور إلى مجموعتين المجموعة الأولى هى مجموعة المترجلين الذين يقتحمون القناة فى قوارب مطاطية، ثم يتحركون على أرجلهم وبسلالم من الحبال ليصلوا إلى الضفة الشرقية، والمجموعة الثانية تضم الوحدات والأطقم ذات الأسلحة الثقيلة التى تنتظر على الضفة الغربية إلى أن يتم فتح الممرات فى السد الترابى وتشغيل المعديات والكبارى ويتم العبور فوق المعديات وعربات اللاسلكى والهاونات الثقيلة وبعض عربات نقل الذخيرة.

ولم يكن ذلك يخطر ببال القيادة الإسرائيلية وإنما ظل يشكل مفاجأة كاملة لها حتى بعد أن شعرت بما يجرى وبدأت تستعد له وتتحرك لمواجهته.

كانت رئيسة الوزراء «جولدا مائى»ر تستعد لمغادرة مكتبها بعد ظهر الجمعة ٥ أكتوبر بعد أن قررت قضاء إجازة العيد بمنزلها فى «برامات أفيف» لتعود إلى القدس صباح الأحد؛ حيث سينعقد الاجتماع المقرر لمجلس الوزراء الإسرائيلى، لكنها تلقت تقريراً عاجلاً شعرت معه بكثير من الخوف، كان التقرير يقول إن طائرات ركاب سوفيتية وصلت إلى دمشق وإنها تقف فى انتظار عائلات الخبراء السوفييت فى سوريا لنقلهم إلى موسكو وأن أفراد العائلات السوفيتية قاموا بحزم أمتعتهم على عجل استعداداً للرحيل.

وأجرت «جولدا مائير» ثلاثة اتصالات تليفونية بوزير دفاعها وبرئيس الأركان الذى تلقبه باسم دادو ـ وبمدير الاستخبارات

«إيلى زائيرا» وكان سؤالها إلى كل منهم يدور حول مدلول هذا التقرير لكن أحدًا منهم لم يجزم بأن هجومًا سوريًا يمكن أن يقع على الفور، وأن ترحيل أسر السوفييت يمكن أن يسبق أية عمليات عسكرية بأيام أو بأسابيع.

واستبعد إليعازر قيام سوريا بعمل عسكرى منفرد وأكد أيضا أن ما يجرى على الجبهة المصرية هو تكرار لما سبق وما تكرر على مدى شهور طويلة كان آخرها شهر مايو الماضى.

ورغم ذلك اتفقوا جميعًا على عقد اجتماع فى المساء وتأجيل برامجهم السابقة المعدة ليوم كيبور وقررت رئيس الوزراء أن يكون الاجتماع موسعًا، وأن يحضره كل الوزراء الموجودين فى تل أبيب.

.. وبــدأت
ملحمة العبور

واكتمل الاجتماع فى السابعة والنصف مساءً بمكتب رئيس الوزراء فى تل أبيب وشهده أعضاء الوزارة الإسرائيلية ومعهم رئيس الأركان مدير الاستخبارات.

وبدأت «جولدا مائير» رئيس الوزراء الحديث قائلة:

«إننى أشعر بضيق وأستشعر خطرًا ينبع من مصدرين: أولهما ما يتردد الآن فى أجهزة الإعلام والصحف العربية حول رفض إسرائيل للسلام الذى يتطلع إليه العرب وتصويرنا فى صورة الذى يستعد للحرب من جديد، والمصدر الثانى هو خروج أسر الخبراء السوفييت من سوريا على وجه الاستعجال.

إن ذلك سبق أن وقع فى الماضى ويذكرنى بما حدث فى مايو ١٩٦٧ عندما اتهمنا العرب بأننا نحشد قواتنا ضد سوريا، وهذا ما تقوله الصحافة العربية الآن ويومها قرر العرب توجيه ضربة عسكرية إلينا لولا أن تحركنا فى عملية وقائية حققت النصر لإسرائيل.

وتولى الرد حاييم بارليف وزير الصناعة والخبير العسكرى المتخصص فى شئون الدفاع وصاحب فكرة الخط الدفاعى

الحصين شرق القناة المعروف باسمه، قال بارليف: «إن الأمر لن يستوجب توجيه ضربة وقائية ولا استدعاء الاحتياط الآن، لكن ذلك لا يمنع من إلغاء الإجازات ورفع حالة الاستعداد خاصة فى أجهزة الدفاع الجوى مع بقاء الاتصال المستمر قائمًا بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع. واقترح الوزير جاليلى الاتصال بواشنطن قبل بدء إجازة نهاية الأسبوع ـ غدًا السبت ـ ومطالبتهم بالاتصال بالسوفييت وبالتأكيد على أهمية بقاء الهدوء فى الشرق الأوسط.

وانفض الاجتماع بعد إرسال بلاغات تحذير إلى وحدات الدفاع الجوى الإسرائيلى ورفع حالة الاستعداد ـ وإلغاء الإجازات دون أى تفكير فى استدعاء قوات الاحتياط.

ولم يعد أمام إسرائيل فرصة لتداول الموقف أو مجابهة الخديعة التى وقعت ضحية لها، فقد بدأ العيد وتوقفت الإذاعات والتليفزيون عن البث وتوقفت معها كل وسائل استدعاء الاحتياط بالطرق العلنية، وساد الجمود كل جوانب الحياة فى إسرائيل ليظل القلق محصورًا بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع طبقًا لما استقر عليه الرأى فى الاجتماع الليلى من مساء الجمعة.

ولم تستطع رئيس الوزراء أن تحضر عشاء ليلة العيد الذى أعده ابنها «ميناحيم» وابنتها «وايا» لأصدقائهما وهو العشاء الذى يسبق صيام يوم الغفران ـ كيبور ـ واتجهت مباشرة إلى مخدعها فى محاولة للتغلب على الأرق.

وبعد لحظات من الغفلة دق جرس التليفون الخاص، وكانت الساعة تشير إلى الرابعة فجر السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكان على

الطرف الآخر السكرتير العسكرى لرئيس وزراء إسرائيل الذى كان صوته مضطربًا يعكس حالة واضحة من القلق.

قال أليور لرئيس الوزراء:

«إن أحدهم يريد أن يتحدث على الفور ليبلغك بأن هناك عمليات هجومية ستقوم بها كل من مصر وسوريا فى وقت واحد اليوم، وأن ساعة الصفر المحددة لبدء الهجوم هى السادسة وأن هذه المعلومات تأكدت من مصادره فى دمشق».

وبعد لحظة صمت قصيرة طلبت مائير من سكرتيرها العسكرى أن يستدعى كلا من جاليلى، وألون، ودادو، وديان للاجتماع فى مكتبها قبل الساعة السابعة صباحًا.

وكان ديان مستيقظا فقد تلقى نفس المعلومات قبل أن تتلقاها رئيس الوزراء، لقد دق جرس التليفون الأحمر بجوار سريره قبل الرابعة فجرًا بدقيقة أو دقيقتين.. وقال محدثه بوضوح كلمات قاطعة:

«مصر وسوريا ستدخلان الحرب ضدنا قبل الغروب، الخبر مؤكد من مصدر رفيع المستوى طلب أن يبلغه بنفسه لرئيس الوزراء».

وقفز وزير دفاع إسرائيل من سريره ليرتدى زيه العسكرى بسرعة ويتجه إلى مكتبه فى وزارة الدفاع وقبل أن يغادر بيته طلب رئيس الأركان ليلحق به فى وزارة الدفاع.

وكان «أليور» سكرتير رئيس الوزراء العسكرى قد أبلغه بموعد اجتماعهم مع مائير، وفى مكتب ديان اقتصر الاجتماع عليه وعلى رئيس الأركان إليعازر وتطرق إلى أربع نقاط:

١ ـ استدعاء الاحتياط وتعزيز الجبهات.

٢ ـ توجيه ضربات جوية فى هجوم وقائى.

٣ ـ إجلاء النساء والأطفال من المستعمرات الحدودية فى الجولان.

٤ ـ توجيه إنذار إلى مصر وسوريا؛ لدفعهما إلى التراجع والظهور أمام العالم بأن مسئولية الحرب لا تقع على إسرائيل.

وطلب رئيس الأركان موافقة رئيس الوزراء على استدعاء الاحتياط وتوجيه هجوم على الجبهتين ولم يكن هناك اعتراض على استدعاء الاحتياط لكن الضربة الوقائية كانت موضع البحث فى الاجتماع التالى الذى تم عقده بعد ساعة واحدة فى بيت رئيس الوزراء والذى عرف باسم اجتماع المطبخ.

واكتمل الاجتماع فى مطبخ بيت «جولدا مائير» فى الثامنة صباحًا وتحدثت مائير قائلة: ان لديها معلومات دقيقة لا تستند إلى تحركات عسكرية معينة، ولكنها تستند إلى معلومات عن القرار العربى بدخول الحرب.

وأشار ديان إلى أن هذه المعلومات قد سبق أن جاءت من قبل وبالذات فى شهر مايو السابق وتم استدعاء الاحتياط بكل ما يترتب عليه من تبعات وتكاليف باهظة دون جدوى، وربما تعمد أحد تسريب هذه المعلومات بعد أن وجد رد الفعل لدى إسرائيل لا يتناسب مع التحركات الجارية فى سوريا، ووجود معدات عبور

تصاحب كل الوحدات المصرية المشاركة الآن فى المناورات التدريبية.

لكن المجتمعين لم يترددوا فى أخذ الأمر بكل جدية واتفق الجميع على حتمية استدعاء الاحتياط وفتح قنوات الاتصال مع أمريكا وإجلاء النساء والأطفال من المستعمرات الإسرائيلية على الحدود السورية.

أما عن توجيه ضربة وقائية فقد تم الاتفاق على تأجيلها مع الإعداد لها بحيث تتم على الجبهة السورية فقط وتوجه إلى قواعدها الجوية الداخلية ونظام دفاعها الجوى الصاروخى وليس على منطقة الجبهة.

وصدرت الأوامر باستدعاء قوات الاحتياط التقليدية وليس بالوسائل العلنية نتيجة لتوقف الإذاعات والتليفزيون خاصة إنه لن يجرى تشغيلهما يوم العيد؛ لأن أحداً لن يستمع إليهما؛ لأن الناس فى إسرائيل يعرفون أنهما لا يعملان فى يوم كيبور.

وقدر رئيس الأركان القوات التى سيتم انضمامها إلى القوات العاملة بين ١٠٠ أو ١٢٠ ألف مقاتل يمكن حشدهم بعد ساعات من بدء الهجوم العربى المقرر موعده قبل غروب شمس ٦ أكتوبر.

وقال: «إن الطيران الإسرائيلى يستطيع أن يبدأ بضربة مباشرة فى المساء حتى لو تراجع العرب عن هجومهم، لكن مائير لم توافق على الضربة الجوية ووافقت على الإعداد لها حتى تتكشف الأمور بوضوح أكثر وطلبت وزير خارجيتها فى نيويورك

حيث كان يحضر اجتماعات الأمم المتحدة ويقيم فى فندق «والدورف استوريا».

كما استدعت سفير إسرائيل فى واشنطن الذى كان يقضى العيد فى إسرائيل وطلبت منه السفر إلى واشنطن على الفور.

كما طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب ليجتمع معها فى أسرع وقت.

قالت مائير للسفير الأمريكى: «إن الهجوم سيكون فى المساء من الجبهتين المصرية والسورية وهذا ما تؤكده معلومات المخابرات وتحليل المعلومات الخاصة بالتحركات السورية والمصرية، ولذلك فإن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم فقد يتراجع السادات كما فعل من قبل وقد تتدخل واشنطن ومعها السوفييت، وطلبت من السفير الأمريكى إبلاغ ذلك إلى وزير خارجيته هنرى كسنجر وإلى الرئيس الأمريكى الذى يستطيع أن ينقل ذلك إلى السوفييت عبر خط التليفون الساخن مع موسكو.

وعندما توجه السفير الأمريكى إلى مكتبه للاتصال بواشنطن كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وكان السؤال الذى يتكرر بصور مختلفة داخل الموقع الذى يسيطر على حركة الحرب فى الجبهة المصرية هو: هل عرف الإسرئيليون؟ ومتى عرفوا؟

كان قد تم رصد طائرتى استطلاع إسرائيليتين بالقرب من قناة السويس فى الساعة التاسعة والنصف صباحًا، لم تعبر الطائرتان إلى غرب القناة، لكن تجهيزاتهما تتيح لهما

الاستطلاع والتصوير من فوق سيناء ولا بد أن تكون إسرائيل قد تأكدت من وجود الجسور ومعدات العبور قرب شواطئ القناة.

لكن الاستطلاع الإسرائيلى رصد أيضا الجنود المصريين يلعبون الكرة على حافة القناة بينما يسبح بعضهم فى مياه القناة نفسها.

ولم ترصد طائرتنا الاستطلاع هذا العدد الكبير من مكبرات الصوت المتنقلة التى بدأ توزيعها على الوحدات دون أن يعرف أحد أنها مخصصة لترديد صيحة «الله أكبر» مع أولى هجمات العبور.

كما لم ترصد طائرات الاستطلاع وصول وزير الحربية المصرى الفريق أول إلى قصر الطاهرة ليصطحب من هناك الرئيس «أنور السادات» فى زيه العسكرى لينضما معًا إلى الرجال فى غرفة العمليات الرئيسية.

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر كانت الساعة « س ـ ١ » عندما وصل الرئيس «السادات» والفريق «أحمد إسماعيل» إلى المركز لتغلق أبوابه الحديدية ويمنع تمامًا الدخول إليه أو الخروج منه.

ويتم ضبط جميع الساعات لأقرب ثانية، وترفع جميع خرائط المناورات التدريبية «تحرير ٤١» لتحل محلها خرائط العملية الهجومية «بدر» وتتوالى الإشارات إلى قيادات الجيش الثانى الميدانى والجيش الثالث الميدانى بإنجاز المهام القتالية اعتبارًا من الساعة ١٢,٤٥، وهى ساعة «الصفر» «س» من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ «ى».

وتصدر التعليمات للدكتور «محمد عبدالقادر حاتم» وزير الإعلام بتنفيذ الشق الإعلامى للخطة الهجومية طبقًا للمتفق عليه، واعتبارًا من «س ـ ٣٥ ق» وهنا تقطع الإذاعة المصرية برامجها فى الساعة ١٣,٣٠ الواحدة والنصف بعد الظهر لتذيع الخبر التالى:

«جاءنا الان أن عناصر من القوات الإسرائيلية المسلحة هاجمت مواقعنا فى الزعفرانة، وهذا الهجوم يمثل خرقًا خطيرًا لوقف إطلاق النار، وقد تم إبلاغ مجلس الأمن الدولى بهذا العدوان».

وبعد إذاعة هذا النبأ استأنفت إذاعة القاهرة برامجها العادية لتقطعها مرة أخرى فى الثانية بعد الظهر وتذيع المارشات العسكرية وعندما بدأت إذاعة القاهرة فى بث الموسيقى العسكرية كانت الأوامر تخرج من المركز رقم «١٠» إلى جميع القواعد الجوية؛ حيث الطائرات على أتم استعداد لتوجيه الضربة الجوية المفاجئة والمؤثرة إلى جميع مطارات العدو ومراكز قياداته ومناطق حشد مدفعيته فى سيناء.

وعلى ارتفاعات منخفضة جدًا عبرت الطائرات مصرية القناة فى وقت واحد لتطلق قذائفها ونيرانها على الأهداف المعادية فى تمام الساعة ١٤,٥ ولتنطلق فى نفس اللحظة قذائف نحو أهدافها فى سيناء.. ويسبح فى مياه القناة أفراد الصاعقة والمهندسون والضفادع متجهين إلى مخارج مواسير السوائل المشتعلة؛ للتأكد من إغلاقها وعدم قيام العدو بإصلاح شىء منها.

وفى تلك اللحظة كان الإسرائيليون يستعدون لمواجهة الهجوم المتوقع فى السادسة مساء، عندما انطلقت صفارات الإنذارات فى كل أنحاء إسرائيل وتم استدعاء القادة العسكريين إلى نقطة القيادة الإسرائيلية المعروفة باسم «كدم» والشهيرة باسم «الحفرة» تحت سطح الأرض فى مركز مجموعة العمليات.

وهناك كان فى انتظار الجميع البيان الأول الذى يؤكد أن المصريين عبروا قناة السويس بطول خط المواجهة كله تحت ستار نيران المدافع تسبقها ضربات مركزة على مراكز السيطرة والقيادة والمطارات قامت بها الطائرات المصرية، وأن العلم المصرى يرفرف الآن فوق النقاط الحصينة لخط بارليف شرق القناة.

الفهرس

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

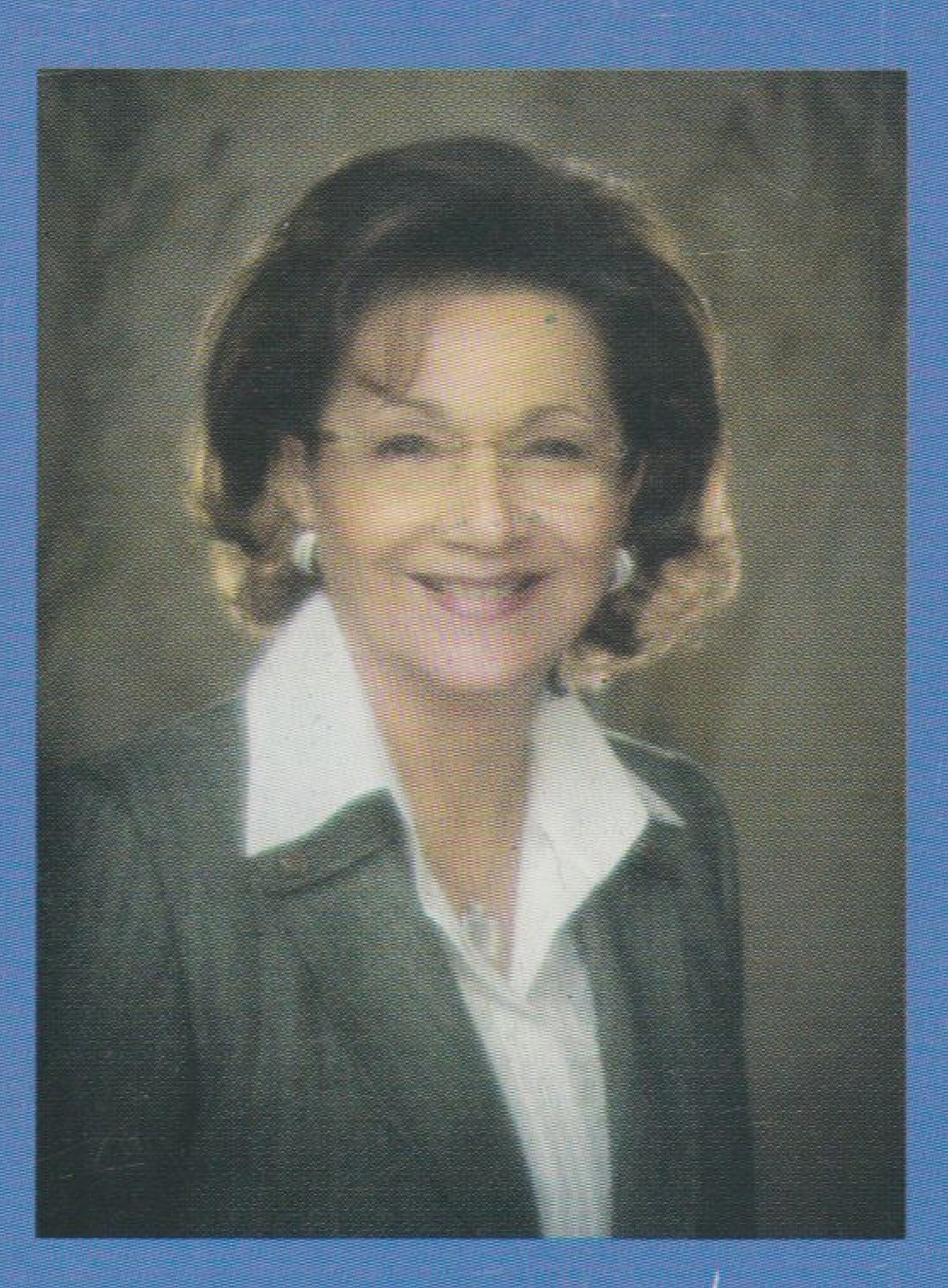
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. maktabetelosra. org.eg
E - mail : info@egyptianbook.org.eg



استوقفتني صورة منشورة في كتاب يتناول دراسة أهمية اعتياد ممارسة القراءة
التقطت الصورة بعد قصف بالقنابل دمر مكتبة، حيث تظهر بقايا المكتبة
التي أصابها القصف وقد انهارت، فسقطت أعمدتها الخشبية وتراكمت
وتحطمت قطع الأثاث وتناثرت، لكن رفوفها المثبتة على الجدران بقيت في
مكانها، تصطف داخلها الكتب في حالة جيدة. المثير للتأمل أنه في وسط
الدمار والفوضى تقف ثلاث شخصيات، الشخصية الأولى تتفحص الكتب مترددة
والثانية تمد يدها لالتقاط أحد الكتب، والثالثة تقرأ في كتاب مفتوح
لاشك أن معنى الصورة تؤكد أن القراءة، بوصفها أهم ممارسات الوجود
الإنساني، هي التي تعزز طاقة مواجهة كل صور معاداة الحياة، وتمنح
الحياة إمكانية التواصل، فالقراءة تصوب فهمنا للماضي، وتعمق
إدراكنا للحاضر، وتشحذ استشرافنا للمستقبل، لذا تظل
دومًا دعوتي أن نقرأ لجودة الحياة.

سوزان مبارك



القراءة للجميع
الهيئة المصرية العامة للكتاب





مكتبة الأسرة ٢٠٠٩
٢ جنيه